16 em Année No. 775

Lundi — 10 — 5 — 1948

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٧٧٥ « القاهرة فى يوم الاثنين أول رجب سنة ١٣٦٧ — ١٠ مايو سنة ١٩٤٨ » السنة السادسة عشرة

فى مذاهب الأدب

للأستاذ عباس محمود العقاد

قد يغنى التمثيل حيث لا يغنى الدليل ، ولا سيما فى تلك المسائل التى تتفق فيها الآراء ولا يقع الخلاف عليها فى الحقيقة إلا لاختلاف الأسماء .

ومن هذا القبيل مسألة الحكم على المذهب الرمزى بينى وبين الكاتب الألمعى الأستاذ فريد بك أبو حديد .

فقد سألنى مندوب « الزمان » عن هذا المذهب فقلت له : إن كلمة الأدب الرمزى كلمة سخيفة ؛ لأن الأدب قبل كل شيء إفصاح ، فمن عجز عن الإفصاح فأولى أن يترك الأدب . ومن كان لا يتكلم إلا بالرموز فخير له أن يخترع له لغة أخرى غير هذه التى تواضع الناس على التفاهم بها . وليخترع إن استطاع نوعاً من الهيروغليفية القديمة تغنى فيها الصور والإشارات عن الحروف والكلمات » .

ووجه المندوب هذا السؤال إلى زميلنا الأستاذ أبى حديد بك فقال : « لا أوافق الأستاذ العقاد فيما ذهب إليه بخصوص الأدب الرمزى ؛ فإن كان هذا الأخير من نوع بيجماليون لبرنارد شو ، وأهل الكهف لتوفيق الحكيم ، وتاييس لأناتول فرانس ، فإنه يعد من أسمى أنواع الأدب . ولعل اختلاف الرأى بين العقاد وبينى يرجع إلى أن الصورة التى فى ذهنى عن الأدب الرمزى قد تغاير تلك الصورة التى فى ذهن العقاد عنه » .

وهكذا أفاد تمثيل الأستاذ فريد للأدب الرمزى المقبول عنده فى التقريب — بل فى التوحيد — بين القولين .

فكل هذه الروايات التى تعجب الأستاذ تعجبنى ، وترتقى عندى إلى المرتبة الأولى فى فن المسرح والرواية .

ولكنى لا أحسبها من أدب « المذهب الرمزى » الذى تكثر الدعوة إليه بين الفرنسيين خاصة فى هذه السنوات الأخيرة ، لأنها لا تعمى ولا تتعمد التلبيس ، ولكنها من أصرح مايقرأه القارئون

وإذا توسمنا فى التعبير فهى عندى من الرمز السائغ وليست من الرمز الممنوع .

لأنى — حين أجبت عن ذلك السؤال — عنيت الرمز الذى يلجأ إليه الكاتب عمداً وله مندوحة من الإفصاح ، أو عنيت الرمز الذى يهرب من النور وليست له معذرة فى الهرب منه .

أما الرمز على إطلاقه فليس هو بممنوع ولا مستهجن ، وقد بينت أنواعه فى مقال بمجلة الكتاب نشر فى أول السنة الماضية فقلت فيه بعنوان « مسوغات الرمزية » .

« إن التعبير بالرموز عادة قديمة فى تعبير الإنسان ، بل عادة قديمة فى بديهة الإنسان . فالحالم مثلا يعبر فى منامه عن شعور الضيق أو الخوف بقصة رمزية .. والكاتب الذى لم يعرف الحروف الأبجدية يرمز إلى المعانى بالشخوص والرسوم . وكهان الديانات رمزون ويعمدون كثيراً إلى الكنايات والألغاز ... والنساك

المتصوفون يرمزون لأنهم لا يستوضحون المعاني الغامضة التي تجيش بها نفوسهم في حالة كحالة الغيبوبة ... وكان بعض الدول يقهر الرعية على عقيدة لا يدينون بها وقد يدينون بغيرها ، فيشيرون إلى عقائدهم برموز يفهمونها ... وقد يكون الرمز اختصاراً لعبارة مفهومة أو صورة ظاهرة ... فالرمز شيء مألوف في تعبير الإنسان وفي طبيعة الإنسان ، ولكنه مألوف على حالة واحدة لا يخلو منها معرض الرمز والكناية ، وهي حالة الاضطرار والعجز عن الإفصاح ... فإذا لوحظت هذه الحالة فالرمز أسلوب متفق عليه لا يحتاج إلى مدرسة تنبه الأذهان إليه . فالخيالي لا يستشير مدرسة من المدارس لتشير عليه أن يحلم بالصور والتشبيهات ... والشاعر لا يعاب إذا مثل لنا الكواكب والأزهار فألبسها ثياب الأحياء . ومن ضاق به اللفظ فعمد إلى التخييل والتشبيه فالناس لا يحسبونه من هذه المدرسة أو تلك ؛ لأن المدرسة التي يصدر عنها في هذه الحالة هي مدرسة البديهة الإنسانية حيث كان الإنسان .

هذه الرموز الطبيعية هي الرموز التي نعجب بها كما يعجب بها الأستاذ فريد .

أما الرموز التي وصفناها بالسخف فهي تلك الرموز الملفقة في غير حاجة ولغير علة ، إلا ذلك الهراء الذي يتحدثون فيه عن « اللاوعي » ... و « اللاشعور » ، ويقولون إنهم يعبرون به عما لا يعيه العقل ولا يحيط به الحس الظاهر ، وهي جهالة منهم يسوقهم إليها أن الكلام عن « اللاوعي » وعن « اللاشعور » شيء جديد ، وكأنهم يحسبون أن الإنسان قد خلق مجرداً من هذا « الوعي الباطن » أو هذا الشعور الذي لا يعي نفسه قبل أن يتكلم عنه النفسانيون المعاصرون .

والواقع أن « اللاوعي » قديم في الإنسان ، وأنه قد صدر عنه في تخيله وتفكيره قبل أن نطلق عليه هذه الأسماء ، وإذا كان المعاصرون قد كشفوه أو أطلقوا عليه الأسماء فذلك أدعى إلى كشفه وتوضيحه ، لا إلى طغيانه على العقل والحس وإلغاء هذا وذاك كأنهما معطلان في تعبير الإنسان وتفكيره ، عاجزان عن الإبانة والأداء .

فالتعمية المقصودة لغير علة هي الرمزية السخيفة التي ننكرها ولا نسيغها ، وهي وليدة التشدق بالمبتدعات الحديثة في مذاهب علم النفس عن غير فهم ولا تمييز بين ما هو حديث في الكشوف العلمية وما هو حديث في طبيعة الإنسان .

إن الكلام الحديث عن طبيعة العقل كالكلام الحديث عن طبيعة النظر أو حقائق النور والإضاءة ، ونحن لا نغير نظرنا إلى الأشياء لأننا عرفنا عن دقائق العين ما لم نكن نعرف ، وكذلك لا نغير شعورنا بالدنيا لأن علماء النفس أطلقوا على الملكات النفسية فينا أسماء لم يعرفها الأقدمون .

ولكن هذه الطائفة التي تسمى نفسها بالمدرسة الرمزية تظن أننا قد خلقنا خلقاً جديداً بعد ظهور تلك المصطلحات على الألسنة فتلغي ما كان من تفكير وتعبير لغير سبب ، وتتعمد أساليب التعمية لأنها سمعت أن الوعي الباطن غير الوعي الظاهر ، وهما في الحقيقة قد كانا كذلك منذ أول الزمان .

فليكن في الأدب « رامزون » ، لأن الرمز أقرب إلى التوضيح والتأثير .

أما الرامز الذي تظهر له الحقائق فيضع يديه على عينيه لكي لا يراها ، فهو لا يرينا شيئاً قط يستحق أن نراه .

***

وقد سألني مندوب الزمان أيضاً عن كلية الآداب ، فقلت له إن هذه الكلية لم تخرج أديباً واحداً منذ نشأت ، وأن الشبان الذين نبغوا منها في الأدب قد نبغوا بجهودهم وملكاتهم على الرغم من سوء التعليم هناك ، وقيامهما في الغالب على قواعد الانتفاع وحب الظهور .

وسئل الأستاذ أبو حديد فقال : « أوافقه بتحفظ . وهذا التحفظ يرجع إلى أن الجامعة المصرية وليدة ربع قرن فلا ننتظر منها بعد ما ننتظره في ربع قرن آخر ، وأملي أن تكون النتيجة طيبة » .

ولست أريد أن أخالف الأستاذ في هذا التحفظ إلا بما يرضيه ويرضى الحقيقة .

فالأستاذ أبو حديد من خريجي مدرسة المعلمين العليا ، وهذه المدرسة قد أنشئت لتخريج المعلمين ولم تنشأ خاصة لتخريج الأدباء .

ولكنها — مع هذا — لم ينقض عليها سنوات حتى أخرجت للعربية أدباء من طراز محمد السباعي وعبد الرحمن شكري وإبراهيم

٢ – عبد الله بن سبأ

للدكتور جواد علي

وجاء في تأريخ الطبري : « كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء أمه سوداء »[١]. واكتفى في مواضع أخرى من تأريخه « بابن السوداء »[٢] وفي العبارة الأولى شرح لكلمة « ابن السوداء » ويدل ما ذكره الطبري على أن أم عبد الله كانت سوداء اللون وأنها كانت قريبة من الزنوج أو من أصل زنجي قريب أو بعيد ، وأن أباه كان من اليمن وإن كنا لا نعرف اسمه كما لا نعرف اسم أمه ، وأنه كان يهودياً إلى أيام عثمان .

وفي البيان والتبيين »[٣] حديث جاء في بعض فقراته « فلقيني ابن السوداء وهو ابن حرب » ولست في شك من أنه يقصد « بابن السوداء » عبد الله بن سبأ الذي يتحدث عنه أصحاب كتب الفرق ، لأن المقالة المنسوبة إلى هذا الرجل هي نفس المقالة التي ينسبها الرواة الآخرون إلى عبد الله بن سبأ ، كما يذكر مؤرخون ورواة أن « ابن سبأ » هو « ابن السوداء » فهل عرف الجاحظ ذلك ، أم أنه قصد شخصاً آخر ؟ على كل حال فالمهم في الرواية أنه نص على اسم والد « ابن السوداء » فدعاه « حرباً » ولكن أي « حرب » هو ؟ فهنالك مئات من الأشخاص عرفوا بحرب . ثم من كان والد حرب ؟ ومن أي قبيلة كان ؟ ذلك ما لم يتحدث عنه الجاحظ ولا غير الجاحظ من الكتاب أو الرُّواة أو المؤرخين . وقد فرّق بعض الرُّواة بين « عبد الله بن السوداء » و « عبدالله بن سبأ » فجعلوا كل واحد منهما شخصاً ، ومن هؤلاء ابن عبد ربه ، والبغدادي ، ومن أخذ عنه مثل الاسفرائيني . ويعتقد المستشرق « إسرائيل فريد لندر » أن هذا التفريق الذي جاء في كتاب « البغدادي » سببه الرواية المنسوبة إلى الشعبي ونصها : « وقد ذكر الشعبي أن عبد الله ابن السوداء كان يُعين على قولها . وكان ابن السوداء في الأصل يهودياً من أهل الحيرة فأظهر الإسلام وأراد أن يكون له عند أهل الكوفة سوق ورياسة فذكر لهم أنه وجد في التوراة أن لكل نبي وصياً [١] إلى آخر الرواية ، وكان قد ذكر قبل ذلك اسم « عبد الله بن سبأ » فحدث هذا الاختلاف ولكنه كان يقصد في الواقع شخصاً واحداً لا شخصين[٢]

ويظهر مثل هذا الاختلاف ولكن بصورة أخرى في موضع من كتاب « العقد الفريد » للفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي المتوفى سنة ٣٢٨ للهجرة . في الموضع الذي ذكر فيه رواية مفصلة للشعبي عن « الرافضة » — وأكثر الروايات التي تتعرض لبحث الرافضة هي من روايات الشعبي — جاء فيها « وقد حرقهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالنار ، ونفاهم إلى المدائن : منهم عبد الله بن سبأ ، نفاه إلى ساباط ، وعبد الله ابن السَّبّاب ، نفاه إلى الحاذر ، وابن كروّس » . فذكر الشعبي في رواياته هذه اسم شخصين : « عبد الله بن سبأ »

(١) الطبري ج ٥ ص ٩٨ (طبعة المطبعة الحسينية) .
(٢) الطبري ج ٥ ص ٦٦ ومواضع أخرى .
(٣) البيان والتبيين ج ٣ ص ٦ ؛ طبعة السندوبي القاهرة سنة ١٩٢٧

(١) الفرق بين الفرق في بحث الشيعة والغلاة . ص ١٢٣
(٢) Isrdel Friea LA-der . seper . 2 . a 28

المازني ومحمد جلال وكامل سليم وأحمد زكي والعبادي وعوض محمد وفريد أبي حديد ومحمد بدران .

فالمسألة إذن مسألة البيئة والاستعداد لا مسألة الزمن الطويل أو القصير .

ولا فضل لمدرسة ننتظرها خمسين سنة لتخرج لنا أديباً أوجلة أدباء ؟ فإن تعليم المدرسة برنامج محدود السنوات ، وليست هي أمة تتولد فيها الأجيال وتحسب أطوارها بالعشرات من السنين . وإذا تم برنامج بعد برنامج ولم نثمر لتمامه بأثر في النهضة الأدبية فذلك هو الإفلاس بعينه ، أو ذلك هو الدليل على أن الأديب الذي يخرجه لنا نصف قرن من الزمان هو وليد الأمة في تطورها وليس وليد المدرسة التي كان ينبغي أن تعطيه ثمرتها في بضع سنوات .

حقق الله أمل الأستاذ في النتيجة الطيبة ، ولكن قبل خمس وعشرين سنة إن شاء الله ... !

عباس محمود العقاد

و « عبد الله بن السباب » والذى يطالع هذا الموضع يتصور أنه الثانى من زعماء الغلاة فى حب على بن أبى طالب ، وأنه كان من حزب عبد الله بن سبأ ، وأن اسم والده هو السباب »

ولكن إذا ما درسنا كتب الفرق وجدنا أنها تسمى أتباع عبد الله بن سبأ « السبائية » كما تسميهم « السبابية » فى ذات الوقت . جاء فى كتاب البغدادى « الفرق بين الفرق » « الفصل الأول من فصول هذا الباب ، فى ذكر قول السبابية ، وبيان خروجها عن ملة الإسلام . السبابية أتباع عبد الله بن سبأ الخ »(١) وقد تكرر ورود هذه التسمية فى كتب أخرى . وأرى أنها لم تأت عن اشتباه أو عن خطأ فى الكتابة ، بل جاءت من سبهم الخلفاء . وقد ظهر السب بينهم على مايظهر قبل أيام عثمان . ولما جاء الإمام إلى العراق أنكر عليهم ذلك . وظلت فرقة منهم ماضية فى سبها ، كما سب الخوارج سائر الصحابة ممن اشترك فى الحوادث السياسية منذ عهد عثمان فما بعد . والظاهر أن القدماء كانوا يطلقون على تلك الجماعة «السبابية» وعلى الواحد منهم «السبابى» نسبة إليهم تمييزاً لهم عن الفرق الأخرى التى ظهرت بعد وفاة الرسول ، كالذى رواه أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ للهجرة فى كتابه « عيون الأخبار » عن المغيرة من أنه كان « سبابياً » وأنه كان من الغلاة (٢)

وكان « المغيرة » وهو المغيرة بن سعد مولى لبجيلة من السبابين . وقد أصلح جماعة من المحققين والناشرين المخطوطات القديمة واستبدلوا « بالسبابية » « السبائية » و « بسبابى » سبائى لشيوع « السبائية » وشهرتها . ورد فى النسخة الخطية «لعيون الأخبار» « وأما المغيرة فكان مولى لبجيلة وكان سبابياً وصاحب نيرنجات » فاستبدل محقق هذا الكتاب بكلمة « سبابياً » كلمة «سبائياً» أى من السبائية « أتباع عبدالله بن سبأ . وقد اعتمد فى ترجيحه هذه الكلمة على ما جاء فى مفاتيح العلوم للخوارزمى(٣) وعلى ما جاء فى العقد الفريد (٤) وفى القاموس(٥)

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٢٣
(٢) عيون الأخبار جـ ٢ ص ١٤٩ طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٨
(٣) مفاتيح العلوم ص ٢١ طبعة أوربا
(٤) العقد الفريد جـ ١ ص ٢٦٧
(٥) عيون الأخبار جـ ٢ ص ١٤٩ ، القاموس مادة سبأ .

كما استبدل السيد سعيد العريان محقق « العقد الفريد » « بعبد الله بن السباب » عبد الله بن السوداء . ومعنى هذا أن عبد الله بن السوداء شخص آخر غير عبد الله بن سبأ كما جاء ذلك لدى البغدادى . وأعتقد أنه لا داعى إلى هذا التبديل فلعل « ابن السباب » من « السبابية » وهى إحدى المصطلحات القديمة التى كانت تطلق على الجماعة التى كانت تسب قسماً من الصحابة . وعلى كل فنحن لا نعرف أى شيء عن هذا الشخص الذى سماه الرواة « عبد الله بن السباب » ولا عن الشخص الآخر الذى سماه صاحب العقد الفريد « ابن كروس »(١)

ويذهب أكثر الرواة إلى أن « عبد الله بن سبأ » هو من أهل اليمن . وقال بعضهم أنه من حمير؛ ولذلك قيل له «الحميرى»(٢) وقد عرف « كعب الأحبار » وهو يهودى مسلم بالحميرى كذلك ؛ غير أننا لا نستطيع أن نقطع بأنه كان من حمير أى من صميم « حمير » فيجوز أن يكون من المنتسبين إليها بالولاء . وهنالك رجل آخر له شهرة فى التاريخ قيل عنه أيضاً إنه كان يهودياً أو من أصل يهودى ، هو « وهب بن منبه » ثم أسلم أو أسلم أهله . وقد ميز عن صاحبيه بلقب هو « الأبنوى » ويعنى هذا اللقب أنه كان من « الأبناء » أى من أبناء جنود الفرس الذين كانوا قد جاءوا إلى اليمن قبل الإسلام لطرد الأحباش . وزعم الطبرى فى تاريخه أنه كان من أهل صنعاء (٣) أما الشعبى فقد ذهب إلى أن عبد الله بن السوداء كان من أهل الحيرة . ونحن لا نستطيع رفض رواية الطبرى كما لا نستطيع قبولها . ولا نستطيع أيضاً تصديق رواية الشعبى ولا تكذيبها . حتى أننا إذا ما أخذنا بالرواية الثانية فإنها لا تتعارض مع الرواية الأولى إذ يجوز أن يكون من أصل يمانى هاجر إلى الحيرة فى العراق (٤) . كما أن من الجائز أن يكون اسم « سبأ » هو الذى أوحى إلى الرواة بهذه القصة قصة موطن « عبد الله » وانتسابه إلى اليمن ومن اليمن فى صنعاء .

وأستطيع أن أقول وأؤكد أن اشتهار « عبد الله »

(١) العقد الفريد جـ ٢ ص ٢٤١
(٢) ابن حزم . Shiiteo 1, 37
(٣) Friedländer, S ' 22 .
(٤) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٢٣

بابن السوداء لم تكن شهرة تسره ، كما لم تكن شهرة تسر أتباعه إن كان له أتباع حقاً . وقد استعملت هذه الكلمة دوماً للتحقير والازدراء . وقد عير بها « عمار بن ياسر » حينما تجاسر وتطاول على الخليفة عثمان بن عفان فكان من جملة ما قاله الخليفة « ويلي على ابن السوداء ! لقد كنت به عليا » (١) وقد عير بها « المقداد ابن الأسود » فقيل له « يا ابن السوداء » (٢) . ولما غضب أبو ذر الغفاري على كعب الأحبار قال له « يا ابن اليهودية » و « يا ابن السوداء » (٣) .

ويكاد يكون في حكم الإجماع بين الرواة الذين ذكروا خبر عبد الله بن سبأ أنه كان يهودياً . وقد أيد علماء الشيعة ذلك أيضاً مثل النوبختي والكشي والكليني المحدث الشيعي الشهير صاحب كتاب « الكافي » في أحاديثه عن الإمام الصادق في عبد الله ابن سبأ (٤) . ويظهر من دراسات هذه الروايات أنها ترجع في الواقع إلى أوائل العصر العباسي وأواخر العصر الأموي .

وقد كانت « صنعاء » عاصمة اليمن في أيام الأحباش قاعدة مهمة لليهود . والظاهر أنهم أقاموها منذ مدة قبل غزو الأحباش لليمن . وأنهم صاروا يشعرون بطمأنينة بال وراحة في هذه المدينة ، فربطوا حوادثها بالتوراة وقالوا إنها مدينة « أزال » « أوزال » التي ورد خبرها في الكتاب المقدس (٥) . فهل كان « عبد الله بن سبأ » أحد هؤلاء اليهود الذين حافظوا على ديانتهم إلى أيام الخليفة عثمان بن عفان حتى إذا أسلم تملكته حمى التنقل من مكان إلى مكان ومن قطر إلى قطر داعياً الناس إلى دعوات غريبة ، طمعاً في إثارة الفتنة وخلق الفوضى في صفوف المسلمين . فزار الحجاز وذهب إلى البصرة فالكوفة فالشام فمصر، واتصل بكل هذه الأقطار عن طريق المراسلة حتى تمكن من تأجيج نار فتنة لم تخمد حتى اليوم ؟

والعجيب أن رجلا كهذا الرجل لم يسجل الرواة حوادثه ولا أخباره ، ثم ينصاع له شيوخ من شيوخ المسلمين ، ولا يتقدم أحد لقتله أو سجنه على هذه المقالات التي كان يظهرها وهو في صورة مسلم يدين بالإسلام .

ذكر الطبري أنه لما مضى من إمارة ابن عامر ثلاث سنين بلغه أن في عبدالقيس رجلا نازلا على حكيم بن جبلة ، وكان حكيم ابن جبلة لصاً ، إذا قفل الجيوش خنس عنهم فسعى في أرض فارس فيغير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويفسد في الأرض ويصيب ما شاء ثم يرجع . فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان فكتب إلى عبد الله بن عامر أن احبسه . ومن كان مثله فلا يخرجن من البصرة حتى تأنسوا منه رشداً . فحبسه ، فكان لا يستطيع أن يخرج منها . فلما قدم ابن السوداء نزل عليه واجتمع إليه نفر فطرح لهم ابن السوداء ولم يصرح . فقبلوا منه واستعظموه . وأرسل إليه ابن عامر فسأله ما أنت ؟ فأخبره أنه رجل من أهل الكتاب رغب في الإسلام ورغب في جوارك . فقال ما يبلغني ذلك ، أخرج عني . فخرج حتى أتى الكوفة فأخرج منها ، فاستقر بمصر وجعل يكاتبهم ويكاتبونه ويختلف الرجال بينهم »(١)

والمعروف أن ولاية « عبد الله بن عامر » على البصرة ، بعد عزل أبي موسى الأشعري عنها ، إنما كانت في سنة تسع وعشرين للهجرة في عهد الخليفة عثمان بن عفان (٢) فيكون مجيء عبد الله ابن سبأ إلى البصرة إذاً في سنة ٣٢—٣٣ للهجرة ، أي في السنة الثالثة من حكمه كما أخبر بذلك الطبري ...

(البحث بقية) **جواد علي**

(١) اليعقوبي حـ ٢ ص ١٤٧
(٢) اليعقوبي حـ ١ ص ١٨٧ طبعة « Houtsma » وص ١٩٨
(٣) Fridländer ' P ' 28
(٤) راجع الكافي في أحاديث الامام الصادق . طبعة محمد عبد الرحيم
(٥) Hastings . P, 958 . Harris' el — Yemen . P,313

(١) الطبري حـ ٥ ص ٩٠
(٢) الطبري حـ ٥ ص ٦٤

لا، لا نملك تحريم تعدد الزوجات

للأستاذ إبراهيم زكى الدين بدوى

كان صديقنا الأستاذ عبد المتعال الصعيدى يقرر فى رده الأول علينا أننا « نملك تحريم تعدد الزوجات » ولكن بطريق مخالف لطريق معالى عبد العزيز فهمى باشا ، « وقد سلكه أولو الأمر حديثاً فى نظائر لتعدد الزوجات » ، وأشار إلى هذا الطريق بمثال هو « تحديد سن الزواج ونحوه مما جرى العمل الآن به ، وألفه الناس بعد أن ثاروا عليه عند تشريعه » ؛ مما يفهم منه بوضوح أنه طريق التشريع الوضعى القائم على استعمال ولى الأمر ما له من سلطان على عماله مأذونين كانوا أو قضاة بمنعهم من تحرير وثائق رسمية لعقود الزواج المتضمنة للتعدد أو سماع الدعاوى المترتبة على هذه العقود .

فلما بينا له — تعقيباً على رده — أنه قد أخطأ القصد إلى التحريم بما أشار إليه من طريق سلبى لا تعلق له بحل ولا بحرمة ، وأن ما ينشأ بين الناس من علاقات شرعية فى الأمور التى تناولها المشرع الوضعي بطريق المنع المتقدم ، يعتبر صحيحاً شرعاً وقانوناً وتترتب عليه جميع الآثار المترتبة على سواه ، عدا تحرير الوثيقة وسماع الدعوى وهما الأثران المعطلان خلافاً لما هو النظر الصحيح فى « قاعدة تخصيص القضاء » ، راح — فى رده الثاني — يحرر مراده بأن لولى الأمر « أن ينهى عنه (تعدد الزوجات) إذا أساء المسلمون استعماله ، فيصير حراماً لنهيه عنه ، وإن كان فى ذاته مباحاً « كما ينهى عن زرع القطن فى أكثر من ثلث الملك » فيكون زرع القطن فى أكثر من الثلث حراماً من هذه الناحية وإن كان فى ذاته مباحاً ... هكذا يقول الأستاذ .

وظاهر مما تقدم أن معالم هذا الطريق الأخير تغاير المعالم التى أقامها للطريق الأول تمام المغايرة ، فذاك طريق ليس له سوابق فى التشريع المصرى الحديث ولا القديم على الأقل فيما يتعلق بنظائر تعدد الزوجات التى مثل لها الأستاذ نفسه بتحديد سن الزواج ؛ فلا ينطبق عليه إذن القول بأنه « قد سلكه أولو الأمر حديثاً فى نظائر لتعدد الزوجات » ، وبالتالى لم يألف الناس هذا الطريق ، فلا ينطبق عليه القول بأنه « مما جرى العمل الآن به وألفه الناس بعد أن ثاروا عليه عند تشريعه » . كما أن ما ذكره الأستاذ نفسه فى ختام رده الأخير من « أن الناس لم يتهيأوا بعد لفهم هذا الحق (حق ولى الأمر فى التحريم) ؛ بل يعدوه خروجا على الدين » يبين بجلاء أنه لم يكن الطريق الذى عناه فى رده الأول ووصفه بأن تحريم تعدد الزوجات بواسطته « كان مطلباً سهلا لا يحتاج إلى ما تكلفه (الباشا) فى أمره » ، والذى تنطبق عليه هذه الأوصاف كلها إنما هو الطريق الذى فهمناه من رده الأول وأشرنا إليه فيما تقدم .

والظاهر أن الأستاذ قد استشعر — قبل سواه — هذا التغاير التام بين الطريقين وأنه لا يستساغ معه اعتبار ثانيهما تحريراً للمراد من الأول ، فحاول أن يعقد بينهما وشيجة قربى إذ قرر فى ختام رده الأخير ما يتضمن أن العلاقة بين الطريقين علاقة الفرع بأصله . فالطريق الذى قررنا أنه هو ماعناه فى رده الأول ولا يمكن أن يكون قد عنى سواه ، متفرع — فى رأيه — على الطريق الوارد فى رده الأخير ولا يعدو أن يكون « تنظيما فيه أو استثناء له من ولى الأمر بما له من حق التحريم والمنع . ولعل مما يدعو إلى هذا أن الناس لم يتهيأوا بعد لفهم هذا الحق ... الخ » والواقع خلاف ذلك لأن الطريقين متغايران — كما قدمنا — تمام التغاير ، ولا يمت أحدهما إلى الآخر بالصلة التى حاول الأستاذ عقدها بينهما ولا بما يماثلها . فهما وإن كانا من حق ولى الأمر — فيما يرى الأستاذ — إلا أن حقه فى كل منهما لا بد من إرجاعه لأصل مغاير لأصل الآخر ؛ فحقه فى منع عماله من تحرير وثائق أو سماع دعاوى معينة راجع إلى (سلطته التنظيمية) عليهم باعتبارهم أدواته فى مباشرة (ولايتى التنفيذ والقضاء) . أما الحق المنسوب له فى التحريم فلا مندوحة من إرجاعه إلى (سلطة تشريعية) لولى الأمر تتعلق بأفعال المكلفين عامة مما يقتضيه تعريف الحكم الشرعى .

وحتى على التسليم بأن طريقه الجديد مما يصح اعتباره تحريراً لمراده بالطريق الأول ، فهو مع ذلك غير مؤد إلى الغاية التى قصد إليها إلا وهى التدليل على دعواه أننا نملك تحريم تعدد الزوجات ، إذ لم يرد من أحد من القائلين بحق ولى الأمر فى النهى عن المباح

أن هـذا يجرى فيما وردت بحله نصوص (تفصيلية) محكمة فى الـكتاب والسنة كما هو الحال فى تعدد الزوجات (وليست هذه النصوص — فيما أعتقد — موضع خلاف بينى وبين الأستاذ عبد المتعال) ، ولا تفيد عباراتهم جريانه الا فيما هو من قبيل « المصالح المرسلة » التى لم يشهد لها الشارع بحل ولا بحرمة فتكون — قبل نهي ولى الأمر — على أصل الأباحة ، أو « سد الذرائع » بالنهى عما يدخل تحت نصوص (أجمالية) بالإباحة إلا أنه يتخذ ذريعة لارتكاب محرم . والحرمة المستفادة من نهى ولى الأمر فى هذه المواضع وما شابهها تكون مستندة فى الواقع إلى دليل عام من الـكتاب أو السنة ، فلا يقال إنها شرعت بنهى ولى الأمر ابتداء . على أن مسـألة نهى ولى الأمر عن المباح — حتى فى نطاق هذا التحديد الذى بيناه — مسألة خلافية ، القول فيها طويل والرأى غير مستقر ؛ فهى ، من كل الوجوه ، ليست بالذى يصح أن يعول عليه فى مثل هذا الباب .

أما ما استشهد به من موضوع « زراعة القطن » فلا يصلح للاستشهاد لأنه قياس مع الفارق الـكبير ، وهذا ظاهر .

ابراهيم زكى الدين بدوى
المتخصص فى الشريعة الإسلامية والقانون
من جامعات الأزهر وباريس وفؤاد

تولستوى الحـــائر (*)

للأستـــاذ محمود الخفيف

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

ما الحياة إلا وهم . وما سعينا فيها إلا عبث . وما أنفسنا وأولادنا إلا طعام للدود . وما مسراتنا وملاهينا إلا كأصوات الخائفين من الأطفال فى ظلام الغابة اللفاء يدرأون بها عن أنفسهم الخوف . وما ذلك الذى نسـميه فى الحياة جمالا إلا غرور ، إن كل ذلك إلا باطل ؛ وإن هو إلا اللاشىء . ذلك ما أفضى به إليه تأمله ، وذلك مايعذبه ويفزعه ويحيطه باليأس من جميع أقطاره وليته ينسى ! ولـكن أنى له النسيان وهـذه الحياة نفسها تذكره أبداً بفزعه الأكبر منها ؛ وهو ما فكر فيها لمجرد الفكر فى ذاته ، ولـكن شيئاً مبهماً خفياً ظل يوجه نفسه هذه الوجهة منـذ حداثته ، لا ينقطع عنه إلا ليعود إليـه أقوى مما كان ، وما زال حتى وقف به على حافة الهاوية ...

وما قصر أو تهاون فى درس أو قعد عن استقصاء . قال : «ولـكنى ربما كنت قد سهوت عن شىء أوأخطأت فهم شىء . ذلك ما تحدثت به إلىّ نفسى مراراً ؛ فليس من الممكن أن تـكون مثل هذه الحال من اليأس أمراً طبيعياً فى الإنسان . ثم بحثت عن تفسـير لهذه المسائل فى كل ناحية من نواحى المعرفة بلغها الناس ، وبحثت بحثاً مؤلماً طويلا ، لا لمجرد الفضول والنظر ، وقضيت فى بحثى الشاق زمناً ، بالنهار وبالليل ، أجدُّ كما يجد من أشرف على الهلاك حين يطلب النجاة ؛ فلم أعد من ذلك بطائل »

لم يدع شيئاً من العلوم النظرية ولا من العلوم التجريبية ، ولـكنه لم يجد فى العلم بغيته . فما بلغ العلماء من العلم إلا بعض ما يتصل بأبحاث المختصين والمحترفين ، أما ماله صلة بالمشكلة الأساسية وهى مشكلة الحياة ، فقد أهمـلوه أو جهلوه . يقول عن العلماء « إنهم هكذا يجيبونك : أما عن سؤالك : ماذا أنت ولم تعيش ، فليس لدينا جواب ، وليس هذا مما نشغل أنفسنا به . أما إذا أردت أن تعلم قوانين الضوء أو قانون الاتحاد الـكيمائى أو غيرها فلدينا أجوبة واضحة محددة عن ذلك لا تقبل الجدل » .

ولم يدع شـيئاً مما له فى الفلسفة صلة بمسائل الحياة ، فقرأ سقراط وبوذا وسليمان الحكيم وشوبنهاور واضرابهم ، ولـكنه لم يرجع من فلسفتهم إلا « بأن كل شىء فى الحياة عبث ، وأن السعيد هو ذلك الذى لم يولد » .

ماذا يقول سـقراط ؟ أليس هو القائل : « إننا نقرب من الحقيقة كلما أخذنا فى الابتعاد عن الحياة ، وأن حياة الجسد شر وباطل ؛ وعلى ذلك فالقضاء على حياة الجسد من النعيم ، وينبغى علينا أن نطلبه ؟ » وماذا يقول بوذا ؟ أليس هو القائل : « إن من المستحيل أن نعيش وفى نفوسنا أن الألم أمر لابد منه ، وأننا سوف يلحقنا الضعف ويصيبنا الـكبر ويدركنا الموت .. ألا إنه يجب علينا أن نتخلص من هذه الحياة ؟ » .

وماذا يقول سليمان ؟ أليس هو القائل « عبث فى عبث وباطل فى باطل ، وماذا يجنى الإنسان من عمله تحت الشمس ؟ يمضى

(*) من كتاب « تولسـتوى » الذى يظهر بعد أيام عن دار الرسالة بالقاهرة .

جيل ويأتى جيل غيره والأرض هى الأرض قائمة أبداً ؛ وكل ما كان هوماسوف يكون ، وما عمل هوما سوف يعمل ؛ ولاجديد تحت الشمس . ولن يذكر ما مضى من الأشياء ، وكذلك ماهو آت فسوف لا يذكره من يأتى بعده » .

وماذا قال شوبنهور ؟ أليس هو القائل : « الحياة هى ذلك الذى كان يجب ألا يكون ... هى الشر ؛ وإن انتهاءنا إلى اللاشيء هو الخير الوحيد فيها » .

وهذه الحكمة الهندية القديمة كيف تصور الحياة ؟ « كان سكيامونى أميراً شاباً يعيش عيشة سعيدة حُجب عنه العلم بالمرض والكهولة والموت . وخرج الأمير ذات يوم للنزهة فبصر بشيخ فقد أسنانه ، يتعثر فى مشيته ، ويبعث منظره الرعب فى النفس ، فسأل ذلك الأمير الذى لم يكن له علم بالشيخوخة حتى ذلك اليوم سائق عربته ، وقد أخذه العجب : ماذا يكون ذلك ؟ وكيف وصل الرجل إلى هذه الحال التعسة الكريهة ؟ ولما علم الأمير أن ذلك حظ الناس جميعاً ، وأنه سوف يصيبه لا محالة يوماً ما ، لم يستطع أن يستمر فى نزهته ، وأمر سائقه فعاد به إلى القصر ليتفكر فى هذه الحقيقة . ثم أغلق من دونه الأبواب وجعل يتفكر . ورجّح أنه وجد عزاء لنفسه ؛ فقد خرج ثانية للتنزه مبتهجاً سعيداً ، ولكنه أبصر هذه المرة مريضاً متهدماً أعشى العينين مرتعش البدن ، ولما لم يكن للأمير علم بالمرض فقد وقف وسأل عن ذلك . ولما علم أنه المرض ، وأن كل إنسان عرضة له وأنه هو نفسه ، وهو الأمير القوى السعيد ، قد يمرض فى غده ، لم يطق متابعة سيره وعاد ثانية إلى قصره ليتدبر ويبحث عن عزاء ورجّح كذلك أنه أصاب عزاء ، فقد خرج يتنزه للمرة الثالثة . ولكنه فى هذه المرة وقع على منظر جديد ؛ فقد أبصر رجالا يحملون شيئاً ما ، فسأل ماذا يكون ؟ ولما أخبر أنه رجل ميت قال متعجباً : ميت ؟ وما الميت ؟ وأخبر أن الإنسان إذا أصبح مثل ذلك الرجل صار ميتاً . فدنا الأمير من الجثة وكشف عنها غطاءها ونظر فيها وسأل ماذا يحدث بعد ذلك ؟ فأخبر أنها سوف تدفن فى الأرض واستفهم عن سبب ذلك فأجيب : لأن الميت سوف لا يعود إلى الحياة وسوف يتعفن وينتج الدود . وسأل الأمير أذلك حظ الناس جيماً ؟ وهل يحدث لى مثل هذا ؟ وهل أدفن وأتعفن وأنتج الدود ؟ أتقول نعم ؟ إذن فإلى القصر . ولن أخرج بعد ذلك أبداً طلبا للمتعة . ثم إن سكيامونى فقد كل عزاء ، وأيقن أن الحياة أعظم شر ، وجعل همه كله أن يتخلص منها ويخلص غيره » .

هكذا تصور الحكمة الهندية الحياة وهكذا رآها تولستوى ، ولقد فكر كثيراً فى أن يتخلص منها ...

ولكنه رى كثيراً غيره من الناس يعيشون لاتزعجهم الحياة ولا يكربهم التفكر فيها ، فإذا كان لم يجد فى العلم هداه ولا فى الفلسفة ، أفلا ينظر فى حياة الناس ليرى كيف يرضون ولا يشقون مثل شقائه ؟

وعرف من الناس فى الحياة أربعة أنماط : ففريق هم الجهلاء الذين لايدرون أن الحياة عبث وسخف ، وليس له فى هؤلاء فائدة ؛ لأنه لايستطيع أن يعود جاهلا . وفريق يعلمون سخفها ، ولكنهم مع علمهم يوطنون أنفسهم على تحملها ، وهو لايقدر أن يجاريهم فهو متبرم ساخط . وفريق هم الجادون العاملون الذين يتخلصون من الحياة على أية صورة ، وهو لا يستطيع أن يفعل فعلهم لأن شيئاً خفيا يمنعه من ذلك كلما أغراه اليأس . وفريق يرون الحياة زوراً وعبثا وأن لاخير فى مستقبل ولا رجاء ، ومع ذلك فهم يتعلقون بها وإن تمذبوا ، وهو من هذا الفريق .

على أن هناك فريقاً خامساً لا يدخل فى هذه الأنماط الأربعة ، هم أولئك الذين لا يكترث لهم أحد ، وينظر إليهم السادة نظرتهم إلى الدواب ، وهؤلاء قد وجدوا لهم فى الحياة معنى يعيشون عليه ، معنى لا يتصل بالمعقول ولا بالفلسفة ، وذلك هو الإيمان .

ولكن إيمان هؤلاء يقوم على أساس من الأرثوذكسية عقيدة الكنيسة الروسية الإغريقية ، وهى مالا يستطيع أن يحمل عقله على قبوله ...

يا للحيرة ! إن العقل يفضى به إلى إنكار الحياة نفسها ، وإن الإيمان يقتضى أن يعطل العقل ... أى بلاء هذا ؟ وأى ليل معتم !

ولكنه علم فيما علم قول المؤمنين إنه لا بد من إعداد النفس للإيمان حتى تؤمن ؛ وإذاً فليدع العقل جانباً وليناقش رجال الدين ، ولينظر فى كلامهم لعله يصل إلى قلبه ، وليقرأ ما كتبه آباء الكنيسة ، وليطالع سير القديسين ، وليتعبد فيقيم الشعائر جميعاً ، وليزر الأديرة ، وليذهب إلى الأب الصالح أمبروز ، ذلك

الذى كان يستعينه جوجول والذى استمانه دستويفسكى وسولوفييف ؛ وفعل ذلك جميعا ولكن الشك ما زال يأخذ بخناقه ويكاد يزهق روحه …

ويقرأ العقيدة الأرثوذكسية ، وكلما أمعن فيها سخرمنها وبعد عن التصديق بها . فما هذا التثليث ؟ وما هذا التحول إلى دم المسيح ولحمه ؟ وما تلك المعجزات التى تنسب إلى القديسين ؟ وما تلك الأدعية والصلوات والطقوس ؟ أذلك مما يقبله العقل ؟ كلا ثم كلا

ثم يحاول أن يطرد الجحود من نفسه فربما كان الجحود هو ما يحول بينه وبين الإيمان . ويقول لنفسه دائما إنه مستعد لأن يؤمن . قال فى كتابه « اعتراف » يصف ذلك : « لقد اتجهت صوب الإيمان لأنى لم أجد شيئا خارجه إلا الخراب . وعلى ذلك فما دمت لا أستطيع أن أطرح عقيدتى جانبا فقد صدقت وخشعت . وقد أحسست فى قلبى من القنوت والخشوع ما جعلنى أفعل ذلك . ثم إنى عدت فخشعت وازدردت الدم واللحم من غير سخرية فى نفسى رغبة منى فى أن أصدق ؛ ولكنى أذكر ما مر بى من صدمة وأرى ما ينتظرنى فيما هو قادم ، فلا أملك أن أظل مصدقا » .

وإذ يرى نفسه فى بحر لجى من الحيرة يسائل نفسه : ماذا يريد أن يعرف على التحديد ليلتمس السبيل إلى معرفته ؟ فيكتب على رقعة : لماذا أنا حى ؟ ماسبب حياتى وحياة غيرى من الناس ؟ وما هدف حياتى وحياة غيرى ؟ ماذا تعنى ثنائية الخير والشر التى أحسها فى نفسى ؟ ولماذا هى قائمة فيها ؟ وعلى أى وجه ينبغى أن أحيا ؟ وما الموت ؟ وأهم من ذلك كله وأكثره تعقيداً كيف أنجى نفسى ؟ ذلك أنى أحس أنى هالك ، فإنى أعيش ثم أموت ؛ وإنى أحب الحياة وأخاف من الموت ، فكيف أنجى نفسى ؟ »

وإذا لم يبق له إلا الدين والإيمان ، فأى إيمان ؟ إنه إذا قارن فى نفسه بين تلك الأوقات التى آمن فيها بالله وبين تلك التى أنكر فيها الله ، وجد الأولى نيرة فيها شفاء للنفس ، ووجد الثانية مظلمة فيها العناء ، ولكن الإيمان بالله شىء ، والإيمان بما تقول الكنيسة الأرثوذكسية شىء آخر …

ولا يزال يطيل القراءة فى العقيدة الأرثوذكسية ، ولا يزال يقرأ الأديان جميعاً فى كتبها ، ولا يزال يزور الأماكن المقدسة علها توحى إلى نفسه الإيمان ، ومن ذلك مدينة كيف وماتزدحم به من كنائس وأديرة قديمة . ولا يزال يستفهم القسيسين والطيبين من الطاعنين فى السن من الناس . ولا يزال يقيم الشعائر ويعظمها . . ثم لا يعود من ذلك جميعاً بشىء إلا الجحود بما تقول الكنيسة .

تلك حال تولستوى وما صنع فى تلك السنوات التى أعقبت زواجه حتى أتم كتابه « أنا كارينينا » . ثم تلقى الضربة التى جعلته يتخبط فى الظلام ، والتى جعلته يلقى بعيداً بحبل كان فى متناوله مخافة أن يشنق نفسه ، ويجعل دون بندقيته قفلاً غليظاً كيلا يصوبها إلى قلبه . وما تلك الضربة إلا أنه بعد طول عنائه يرى الحياة لاشىء ، ولكم يزعجه اللاشىء ويوبق روحه ويزعزع فؤاده !

ولكن إذا كان لا يجب أن يقتل نفسه فما معنى أن يستسلم لليأس ؟ وكيف يحيا إذن ويطيق حياته إذا كان لا يرضى الموت ولا يرضى الحياة ؟

إذن فليجاهد على وعورة الطريق وبعد الشقة وظلمة المفازة ، ليجد معنى للحياة تاح له نفسه ، ويسعد به البشر . ولئن وقف به ما سلف من جهاده وقفة التائه الذى يخيفه الفضاء والظلام ، فلخيرله أن يمضى لعله يجد بعد الضلال هدى وبعد العذاب راحة . ولأن يتحمل وعثاء السفر مهما عظمت أهون عليه من هذه الوقفة التى تكاد تلقيه فى قرار سحيق …

لقد قضى من عمره قرابة ثلاثين عاماً يعمل للفن ، فليقض ما بقى من عمره عاملاً على تقرير معنى الحياة ، وليس ما يمنع أن يكون الفن أداته فيما هو قادم إذا لزم الحال …

وسوف يعمل تولستوى دائباً ناصباً ، حتى ليعد جهاده فى سبيل غايته من أروع فصول الكفاح فى خطى البشرية ، فليس أبلغ فى معانى البطولة من تحمل مثل ما سوف يلقاه من عذاب ، ولا من الصبر على مثل ما سوف يعترض له من صعاب . ولسوف يغدو تولستوى فى تاريخ الفكر الحديث ، والأدب الحديث ، والفن الحديث ، بجهاده الهائل منقطع القرين فى إخلاصه وحميته وثباته . أجل ، وسوف يرتفع إلى منزلة وسط بين الأنبياء والناس .

محمود الخفيف

لا أثر للمغازلة فى روسيا

مترجمة عن مجلة انترناشونال دايجست

بقلم الأستاذ توفيق ضعون

هذا ما بدا لأحد سكان غربى أوروبا عند ما زار موسكو ، وقد عاد منها مقتنعاً أن « الرفيق كوبيد » أصبح شيئاً غير مرغوب فيه فى وطن ستالين . أما روايته فى هـذا الصدد فهى ما يلى :

لقد ألف سكان غربى أوربا مشاهدة المطارحات الغرامية على أنواعها ، وفى جملتها تبادل القبَل فى الشوارع والمتنزهات ، والتشجيع على المناصرة الذى يلقاه الرجال من الغوانى . فلا بدع إذن أن يعجب الباريسيون أو سكان أى مدينة من كبريات المدن الأمريكية للمحافظة التامة على الآداب العمومية التى يلقونها فى موسكو .

ممـا لا ريب فيه أن هذه المدينة التى تعج بضعف عدد سكان باريس هى واحدة من « أنظف » بلدان العالم ؛ إذ أن العلاقات اليومية بين الرجال والنساء خاضعة لقواعد التعفف والصون التى جرى عليها الأقدمون . فلا عواهر يخطرن فى الأسواق ، والرجال والنساء ، شباناً وكهولا ، لايتبادلون القبل علانية ، ولا يسيرون متشابكى الأذرع ولامتضامّين لكى يثبتوا للملأ ما يضمره أحد الفريقين للآخر من حب وإعزاز . وجـلُّ ما رآه الزائر محبان يتنزهان ، وقد أخذ كل منهما بذراع الآخر فى احتشام كلى ، فيخيل إليه أنهما زوجان انقضى على قرانهما عقد من السنين .

ومما استرعى انتباهى بنوع خاص أننى بينما أنا واقف فى مطار كالينينغراد فى انتظار طائرة تقلنى إلى موسكو ، تجلى أمامى مشهد وداع مدهش جرى بين جندى مبتور الذراع وخطيبته الحسناء المسافرة ؛ فعند ما أزف الموعـد أخرجت الفتاة من محفظتها تفاحة قدمتها للجندى فتناولها مبتسما ، وبادلها بدوره إهداءها بضمة من أزهار كان قد اقتطفها من حقل مجاور . والظاهر أن تعرضهما للأنظار ربكهما إلى حـد أنهما افترقا دون عناق . وصعدت الفتاة إلى الطائرة حيث لبثت مستغرقة فى تفكيرها لاهية عن كل ما حولها باستثناء لحظات خاطفة كانت تلقى فيها نظرة أسى من النافذة ، أو تصوبها إلى طاقة الزهر الصغيرة التى زوّدها بها خطيبها الجندى ، وعبثاً حاولت الترفيه عنها ، فقد رفضت بأدب وحزم كل ما عرضته عليها من سكائر وحلوى .

وفى غضون الأسبوعين اللذين قضيتهما فى موسكو تكررت أمامى المشاهد الدالة على المحافظة إلى أقصى حدودها . ولم يتفق لى ألبتة أن رأيت مطارحة من المطارحات الغزلية الشائعة المألوفة فى المدن الأوروبية والأمريكية . فإن تلك النظرات الخاطفة التى يتبادلها المارة عادة فى باريس أو نيويورك ، والتى تعبر عن التباهى بالجمال أو الأناقة أو الإعجاب بهما مفقودة تماماً فى موسكو . والذى وثقت منه أن الفتاة أو المرأة فى العاصمة الروسية لا تدرك معنى لأدلة الحب والإعجاب ، أو هى تأخذ نفسها بواجب تجاهلها فإن أنت أطلت النظر إليها عزت ذلك منك إلى تنبيهك لطخة علقت بأنفها فتحاول إزالتها بمنديلها .

وإذا رأيت امرأة جالسة على مقعد فى حديقة عامة فلا تخش إذا أنت جاورتها أن تحدجك بغضب ، أو تخلى مكانها ؛ إذ هى لا ترى فى صنيعك ما يريب أو يدعو إلى الاستهجان . وإذا جرؤت على سؤالها عن الوقت أو استطلعتها رأيها فى الطقس أجابتك بكل بساطة معينة لك الساعة ومعربة عن شعورها بنقص الحر أو اشتداده بالنسبة إلى ما كان عليه فى الأحد الفائت .

ولا يصح أن يُعزَى ما يبديه الذكور فى موسكو من الفتور أو التحفظ إلى نقص فى جاذبية إناثها ، فهن على العكس من ذلك بارعات الحسن ، وجمال بعضهن رائع فتان . فهناك الموسكوفيات الذهبيات الشعور السمهريات القوام ، والشماليات ذوات البشرة العاجية والأعين الزرق ، والقوقازيات الفاتنات اللحاظ المفترات الثغور . ولـكن برغم كل هذه المغويات يندر أن يعيرهن الرجال التفاتاً . وحتى اليوم لا أعلم سبباً لهذا الفتور وعدم المبالاة يبديهما الرجال نحو أبرع النساء جمالا سوى اعتبارهم الاحتفال بالجمال إلى حد التدله ، إخلالا بالآداب العامة .

وممـا يلفت النظر بنوع خاص هو أنه بين زهاء الألفين من اللوحات المصرية المعروضة فى المتحف الفنى لا يوجد رسم واحد عار . وفى أثناء إقامتى فى المدينة أعرت مديرة النزل دفتراً أودعته ما أوحاه إلىّ خيالى من رسـوم عارية لآدم وحواء فى

الفردوس . فلم يكد يقع نظرها على الرسم الأول حتى أعادت إلىّ دفترى قائلة : « اسمح لى أن أعيد إليك بضاعتك إذ لا سوق فى روسيا للرسوم البذيئة ! » ، ولا يتوهمن القارئ أن بين تلك الرسوم ما يريب أو يخدش العفاف ؛ فإننى لو كنت فى باريس لما تحرجت أن أطلع عليها راهبة في دير سان سوبليس فلا ترى فيها ما يوجب الإغضاء . والأغرب من ذلك أن الكثيرين من أصدقائى فى موسكو أكدوا لى أن تلك المديرة لا تعد من المتطرفات فى التصون .

وربما كان أشد ما حيرنى سلوك الرجال ؛ فهم متطرفون فى كتمان عواطفهم الجنسية . ومما أذكره فى هذا الصدد أننى بينما كنت مسافراً فى طائرة أخذت أسلى نفسى بمطالعة عدد من مجلة « ليف » حتى إذا ما استوعبت جل ما يهمنى من مواده دفعته إلى ضابطين روسيين مجاورين لى ، فراحا يقلبان صفحاته دون أن يستوقفهما ما حفل به من رسوم الفتيات ذوات الجمال الرائع والهندام البارع ، شأنهما فى ما مرا به دون مبالاة من صفحات المواد لجهلهما اللغة الإنكليزية . أما الصفحة الوحيدة التى أطالا فيها التحديق فهى تلك التى تضمنت إعلاناً عن معمل دراجات آلية .

ولا يزال ذلك الاحتشام المحسوس الملموس فى روسيا سراً مغلقاً علىّ ، وربما كان من أول الأسباب الداعية إليه هو أن النساء فى الاتحاد السوفياتى ، باستثناء أقلية لا يؤبه لها ، أصبحن على قدم المساواة مع الرجال ، ففى كل مكان تقوم المرأة بأعمال كانت وقفاً على الرجال ، كقيادة الحوافل ، وبيع تذاكر السفر فى محطات السكك الحديدية ؛ حتى أن تنظيف المجارى تقوم به النساء . وكثيراً ما تبصر إحداهن خارجة من الأعماق وقد علت وجهها وثوبها الأقذار بعد أن غاصت فيها بحذائها الساق الضخم .

ومن الجهة الثانية نرى أن الروسيين قد أعياهم إدراك مفهوم الغربيين للأسلوب الأصلح فى العلاقات بين الجنسين . ومن الأمثلة الطريفة على تقصيرهم فى هذا المضمار هو ما شاهدته فى (ڤيانا) ، فقد دُعى عدد من الفتيات الفرنسيات المجندات إلى حفلة اجتماعية أقامها ضباط روسيون . ومما لا ريب فيه أن الفرنسيات لم يجاوزن فى سلوكهن الحد الذى ألفنه مع أبناء جنسهن . وكان الروسيون الذين تجنبوا كل أنواع المنازلة أن رافقوا بكل أدب مدعواتهن إلى منازلهن ، ولكنهم لم يتمالكوا أن أبدوا منتهى الاستغراب عندما رأوا الفتيات يودعنهن عند الباب ولم تدع واحدة منهن رفيقها للدخول وتناول فنجان من الشاى أو كأس من الشراب .

وهذا لا يعنى أن الغريب المقيم على سفر فى موسكو لا يستطيع أن يصادق فتاة روسية ، على أن علاقته بها تختلف كثيراً عما لو كان فى باريس أو لندن أو نيويورك . مثال ذلك أن الفتاة الموسكوفية تستاء إذا حاول رفيقها أن يدفع ثمن ما تتناوله من طعام أو شراب ؛ فهى تصر على دفع حصتها من النفقة ، ولا تقبل هدية إلا إذا كان فى استطاعتها أن تقدم ما يضارعها فى أول فرصة تسنح .

وقد اتفق لى أن قدمت يوماً لفتاة عرفتها هدية صغيرة فردت عليها فى الحال بطاقة من الأزهار . وفى ظرف آخر قدمت لفتاة موسكوفية زجاجة عطر أتيت بها من باريس فما كان منها إلا أن قدمت إلىّ على الأثر كيساً من البرتقال .

وها أنا قد عدت من روسيا مندهشاً لتحرر الروسيات من سلطان الحب . ولا بد لى من الاعتراف بأن العلاقات الجارية بين الجنسين فى العاصمة الروسية تدهش إلى أقصى حد الرحالة الذى تتالت أمامه فى كل مكان المشاهد الدالة على ما كان للحرب من الأثر فى تداعى الأخلاق ، وما عقبها من الفوضى الأدبية فى البلدان الأوروبية دون استثناء .

نوفيق ضعون

مذبحة الأبرياء
في قرية دير ياسين

للأستاذ علي محمد سرطاوي

تقع قرية دير ياسين البالغ عدد سكانها (٧٠٠) نسمة، غربي بيت المقدس، بين المستعمرات اليهودية، وكانت تعيش مع اليهود على أحسن ما تكون الصداقة، ولم يعتد أحد من سكانها على أحد من اليهود.

ويوم كانت البلاد تشيع ابنها البار، وبطلها المعظم، الشهيد عبد القادر الحسيني، بطل القسطل، إلى مثواه الأخير، انقضت جموع غفيرة من اليهود المسلحين على تلك القرية وأمعنت في السكان الآمنين قتلا وذبحاً: فبلغ عدد القتلى (٢٥٠) قتيلا. وكان من بينهم (٢٥) امرأة حاملا، (٥٠) امرأة مرضعا، و(٦٠) امرأة أو فتاة ذبحن ذبح الخراف في أفظع مظاهر القسوة. ثم جمعوا (١٥٠) امرأة وبعد أن مزقوا ملابسهن، واعتدوا عليهن، أركبوهن سيارات مكشوفة، وطافوا بهن الأحياء اليهودية. وكان الجمهور الصهيوني المتمدن المهذب يرجمهن بالحجارة ويبصق عليهن، ويشتم دينهن، ونبيهن؛ والجلادون واقفون فوق رؤوسهن، يتباهون بهذه البطولة، والجمهور يهتف لهم، ويطيل التصفيق، حتى إذا ما أنعمهم الطواف بهن، أوصلوهن إلى طرف الأحياء العربية، وأخذوا يقذفونهن إلى الأرض، ويطلقون الرصاص فوق رؤوسهن كبرا وجبروتاً وإرهاباً!

والذي يتراءى أن الباعث النفسي الذي يحرك هؤلاء الناس، إلى أعمال وحشية من هذا النوع، لا يعود في أصله إلى وطنية صحيحة، ورغبة صادقة في العيش بسلام في جزء من الأرض، وإنما يعود إلى شعور هذه الطائفة، أفراداً وجماعات، بالعجز والجبن، والبعد عن الرجولة والشجاعة، لأن الرجل الشجاع لا يستبيح لنفسه أن يقتل طفلا أو امرأة في مثل هذه السهولة، ثم يتباهى بما عمل من بطولة، وبما صنع من معجزات.

والتاريخ الحافل بالاضطهاد الذي ذاق مرارته اليهود، في الزمن البعيد والقريب، كان كافياً ليترك في أعماق نفوسهم ثورة جامحة مدمرة، على أي عمل يقترف على أيديهم، أو بسببهم، يتصل بالأساليب التي اضطهدوا بها، لو كانت لهم ضمائر تتمشى فيها الكرامة الإنسانية.

والذي ينشد الحرية والاستقلال لا يطلبهما عن طريق محاربة استقلال الآخرين وحريتهم. وإنسان من هذا النوع خليق بأن يحرر نفسه من ذل الزمن، وأن يتحرر من القيود والنزعات الهمجية التي لا تسيطر إلا على الشعوب الساذجة التي لم تنل قسطاً من يقظة الضمير، قبل أن يرفع عينيه إلى مصادر النور!

وليس مقياس مدنية شعب من الشعوب، هو مقدار ما يملك من قوة مادية، وإنما هو مقدار ما يملك من قوة روحية تدفعه إلى حب الخير، وإلى التمرد على الظلم في جميع صوره ومظاهره! والعقبات الزمنية التي يقف أمامها شعب من الشعوب في طريق سيره نحو الأبد المجهول، ليست إلا اختياراً عملياً، يقدمه ذلك الشعب للحياة، لترى مقدار ما في طبيعته من حب للشر أو الخير ليمنحه التاريخ الشهادة التي يستحقها.

ولقد يخدع شعب من الشعوب نفسه، ويدور حول الحقائق ويتحلل من شخصيته الصحيحة في سيره مع تيار الحياة، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى قواعد نفسه مهزوماً مدحوراً، كما يعود إلى نفسه وطبيعته المجرم الأفاق الذي يتظاهر بالورع المزيف، والتقوى التي ليس لها في حسه وجود.

ولقد كلف الطموح الجنوني، في الأمس القريب، ألمانيا والعالم أجمع، ضحايا، وآلاما، ومتاعب، كانت نهايتها انهيار هتلر ونظامه، ومن ورائهما ألمانيا العظيمة، تلك الأمة التي دمرها ذلك الطموح، وجرعها مرارة الذل والخضوع.

واليهود، وهم حفنة في حساب العدد، يطمحون إلى السيطرة على سبعين مليوناً من العرب، بانتزاعهم فلسطين، وهي قلبهم الخفاق، غير مقدرين النتائج الوخيمة التي ينطوي عليها هذا الاندفاع الجنوني.

والفظاعة المتناهية، في صور القسوة والبربرية والهمجية، التي يعتدون بها على النساء والأطفال والشيوخ، حتى على جثث الشهداء، سياسة يحسبون أن اتباعها يرهب العرب ويوصلهم إلى ما يريدون منهم. وقد نسوا أو تناسوا، أن العرب أمة عريقة في المجد، شديدة البأس، لا تلين لأساليب العنف، ولا تزيدها ذلك إلا عنفواناً وصبراً وجلداً وتصميما على الأخذ بالثأر، مهما

بين الشيوخ والشباب

للأســـــتاذ عباس خضر

تجرى بين الحين والحين مناوشات بين أدباء الشباب وشيوخ الأدب ، تتمثل فى نقدات خفيفة من الشباب للشيوخ ، قليلها فى أعمال أدبية معينة ، وأكثرها تفنيد لسلك بعضهم فى الإنتاج التافه السف الذى يختلف عن سابق جدهم وإبداعهم ، ولبعد أكثرهم عن ملابسة الحياة وواقع الناس فيما يكتبون ، فهم — فى رأى الشباب وبعض الشيوخ — إما هاذرون مسفون ، أو معتصمون بالقباب الذهبية .. ولا أقول الأبراج العاجية .

وتتمثل تلك المناوشات أيضاً فى حملات بعض الشيوخ على الشباب ورميهم بالقصور فى التحصيل واستكمال الأداة ، وأنهم يحاولون هدمهم ، ويقولون إن عليهم أن يجدوا ويكدوا ليصلوا إلى ما يبتغون ويظفروا بما يأملون . وقد كتب الأستاذ المازنى مرة يتساءل : هل يحفر الشيوخ قبورهم بأيديهم ؟ ماذا يريد هؤلاء الشباب ؟ وضرب مثلا للشباب ما بذله من جهود فى التحصيل وما عاناه فى مقتبل حياته الأدبية .

وأخيراً كتب الأستاذ توفيق الحكيم مقالا فى «أخبار اليوم» بعنوان « آمال الجيل » أشهد أنه كان لبقاً فيه ، إذ بث فى أوله وفى وسطه روحا طيبا فى معالجة العلاقة بين الجيلين . ومما قاله « ما الذى سيحدث فى العشرة أو الخمسة عشر عاماً المقبلة ؟ هل الأمل معقود على طائفة من الأدباء يمكن أن تبرز بنوبتها فى الصف الأول ، لتمضى فى رفع مشعل الأدب والفكر فى هـذا البلد ؟ ! أو أنه كما يقال ليس فى الإمكان أبدع مما كان ؟ ! » وقال : « ونحن إذا جلنا اليوم فى حديقة الأدب المصرى لوجدنا أشجارا مملوءة بعصير الحياة ، مونعة بأزهار الفن .. لا ينقصها إلا أن ننظر إليها بعين الرضا ، وأن تتخيل ماستكون عليه غدا من سموق وارتفاع .. » ومضى يتساءل عن واجبهم نحو أعلام الغد ويعترف بانصرافهم عنهم إلى أن ختم المقال بقوله : « غير أن المشكلة التى تحيرنا دائماً هي : وسيلة المعونة ! .. أهى فى تجنيب الجيل الجديد

تطاول الزمن ، ومهما جسمت التضحيات .

ولقد سبق للغرب أن شن هجومه على الشرق باسم الدين ، فى الحروب الصليبية ، وفى فلسطين نفسها ، فلم يهن العرب ، وبقيت الحرب بينهم وبين أوربا سجالاً قرابة قرنين من الزمن القاسى ، تمكنت فى نهايته من طردهم منها . وها هو التاريخ يعيد نفسه ، ويحمل إلى شواطىء فلسطين جماعات مشردة ، أفاقة ، مجرمة ، من الهوان على أنفسهم وعلى الحقيقة ، أن يحسب لهم العرب حساباً ، مهما امتلأت أيديهم من أدوات الفتك والتدمير والغدر والنذالة التى يطفح بها تاريخهم القديم والحديث ، إن جاز أن يكون لجماعات من هذا النوع تاريخ أو ما يشبه قصة تفوح منها روائح القبور والجيف .

إن العرب وهم شعب عريق فى المجد ، لن يقابل أعمال اليهود البربرية بمثلها ، بل يمضى وراء أولئك الأنذال أشباه الرجال ، يعلمهم درساً قاسـيا ، ويهدم على رؤوسهم المجرمة ، صروح الأوهام ، متبعاً فى ذلك وصية أبى بكر ، أول خليفة ، لأول جيش يفيض على أطراف الهلال الخصيب من الجزيرة الجبارة ، من عدم الاعتداء على النساء والأطفال والشيوخ . وحينما احتل الصليبيون بيت المقدس ، تباهوا بأن خيولهم كانت تسبح فى دماء النساء والأطفال والشيوخ الذين استجاروا برحاب المسجد الأقصى فذبحوهم فيه . ولكن صلاح الدين الأيوبى حقن دماء أولئك القساة ، وسمح لهم بالخروج من بيت المقدس حين تم له طردهم منها

ولو عقل اليهود ، وقدر لهم ، أن ينظروا إلى قلوب العرب الكريمة الرحيمة ، قبل هذه البربرية ، لوجدوها تفيض بالحنان والرحمة ، ولتأكدوا من أنها أبر بهم وأحنى عليهم من تلك القلوب المستعمرة التى تتخذهم الآن وسيلة للاعتداء على حرية العرب الذين طالما أغدقوا عليهم العطف فى كل عصور التاريخ .

والعرب فى كافة أقطارهم ، مصممون على سحق الصهيونية المجرمة ، فى فلسطين ، لا حباً فى سفك الدماء ، ولكن دفاعاً عن الشرف العربى الذى استباحوه فى رعونة جنونية . والويل لهم حينما تدنو ساعة الإنتقام والثأر لشرف المسلمات فى دير ياسين ، اللائى طالما صرخن ، وا معتصماه ! وللعرب سبعة معتصمين الآن يثأرون للشرف المستباح . وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

علي محمد سرطاوي

أخطائنا ، أم هى فى إشعاره بأخطائه ؟ أهى فى إعداده قبل الظهور ، أم فى إظهاره قبل الإعداد ؟ ! ثم أولئك الذين قطعوا فى فهم شوطا وظهروا بعض الظهور ، وبدت مواهبهم متألقة كقطع النـور ، أعلينا إزاءهم واجب ؟ ما هو ؟ وما السبيل إلى الوفاء به ؟ .. إنا جميعاً لعلى استعداد أن نؤدى واجبنا ولن نحجم عنه أبداً ، إذا عرفنا الوسائل وملكنا الأسباب ! »

ولا أرانى فى حاجة إلى قـدر كبير من الألمعية لأدرك أن المقصود من المقال هو هذا الختام الذى انحسرت عنه تلك الروح الطيبة .. وقد استعان على إبراز هذا المقصود بعبارات التهكم من مثل « أم فى إظهاره قبل الإعداد ؟ ! » كما استعان على ذلك بنقط التعجب وعلاماته التى حرصت على إثباتها فى مواضعها . وعلى ذلك نستطيع أن نقول إن هذا المقال من أسلحة كتلة الشيوخ . فهو يشبه « مشروع مارشال » من حيث أن كلا منهما يرمى إلى مكافحة الكتلة الأخرى .. فكأنه يقول : هؤلاء الشباب الذين يتطاولون علينا — ماذا يريدون منا ؟ وماذا نصنع لهم ؟

ولكى أثبت للأستاذ الحكيم حيادى وبراءة هذا الذى أكتبه من تلك الناوشات التى لن تفضى إلى حرب ذرية على أى حال — أسارع فأقره على حيرته وحيرة الشيوخ فيما يصنعون لهؤلاء الشباب » وإن فى هذه الثروة الأدبية الضخمة التى كونها أدباء الجيل ، لمدرسة للشباب ، وقد تخرجوا فيها فعلا ، فما هو الإعداد إن لم يكن هذا ؟ أيعقدون لهم فصولا فى النصح والإرشاد ؟ ولا أخفى أننى أبتسم عند ما أسمع أن كبار الأدباء قصروا نحو الجيل الجديد وأن عليهم أن يأخذوا بيدهم .. إلى آخر هذا الكلام الذى لا أرجعه إلا إلى العى ...

على أن هناك جانبا عمليًا لا يملك كل الكبار فيه شيئاً ، وهو النشر والتشجيع على الإنتاج . ومن الحق أن أقرر أن من بيدهم شىء من ذلك نراهم يشجعون كثيراً من الشبان الناضجين ويقومونهم ، وإن كان بعضهم يقصر عنايته على بطانته والسائرين فى ركابه ..

ولا أريد أن أسترسل فى ذلك الذى جرتنى إليه دعوى ذوى العى والراغبين فى الوصول دون عناء . أما ذوو الكفاية والكرامة من الشباب فما تلك دعواهم ، إنما هم يشقون طريقهم بأقلامهم ، لا ينتظرون من أحد معونة ولا يداً ، وهم إزاء ما يشاهدون من إسفاف الكبار ، يرون أنهم أقدر على تلبية روح عصرهم الجديد ، فإن لم يتيسر لهم ذلك الآن فهم فى الطريق إليه .

أما النقد الأدبى ، وقد تخلى عنه الكبار لأسباب منها : المجاملات الشخصية ، والرغبة فى الدعة الذهنية ؟ فإن الشباب يحاولونه . وتعوقهم عوائق كثيراً ما تأتى من الشخصيات التى يتناولها النقد ؛ فما يكاد يظهر نقد فى صحيفة حتى يصيح المنقود : هؤلاء الشباب الذين لم يقرؤا كما كنا نقرأ ... الخ — يريدون أن يهدمونا ... ولا أجـد غضاضة فى أن أصرح بأن مجاملات المشرفين على النشر من أكبر عوائق النقد الأدبى ، وهم يقولون لك : ترفق ، ولا تكن عنيفاً . أكان أساتذتنا أدباء الجيل مترفقين فى نقد من كان قبلهم ... ؟ أو فى نقد بعضهم بعضاً أيام الحماس والفتوة ... ؟ لقد كانوا يتبادلون شتائم يخرجون فيها عن حدود الذوق والفن والأدب . ولاشك أن لغة النقد الآن — على قلته — قد ارتقت وهذبت . بل هى رقت إلى حد أفسدها ... وهو حد التقارض والمصانعة .

فكيف يفزع من هـذا النقد الرفيق من ذلك ماضيه فى النقد ؟ أما الأستاذ توفيق الحكيم خاصة فليس له ماض فى النقد الأدبى ، وهو لا يميل إلى الاشتباك فى المعارك الأدبية ، ولذلك نراه يتخذ أسلوبا « حكيما » فى الفزع من النقد .. يقرأ ما يكتب عنه ، ثم يعقد فصلا فى أخبار اليوم يتظاهر فيه بأنه يعالج موضوعاً مستقلا ، وما هو فى الواقع إلا تبرير لما يؤخذ عليه ... وأستطيع أن أرجع دافع كل مقالة كتبها فى ذلك إلى شىء كتب عنه . ثم جاء أخيراً يسأل : ماذا نصنع ؟ تناقش ياسيدى وجهاً لوجه ، وتدفع الحجة بالحجة ، أو تسكت إن أخذتك العزة بالإثم ...

والحق الصريح أن أكثر نتاج الكبار فى هذه الأيام لا يعجب الشباب ، ولا يعجب كثيراً من الكبار أنفسهم ، ويعز على الجيل الجديد أن يفجع فى أساتذته ، وأن مما يمكن أن يصنعه هؤلاء الأسـاتذة أن ينفضوا الغبار عن تماثيلهم القديمة المقدسة لدى الشباب . .

أمنية الشـــــاعر !

لشاعر الحب والجمال لامرتين

بقلم الأستاذ صبحى إبراهيم الصالح

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

... وكأنما عز على لامرتين أن يتعب روحه ويضنيها فى البحث عن الله ، أو كأنما شعر أنه أوفى من بحثه على الغاية التى يحق للبشر أن يوفوا عليها — فآثر أن يستريح راضياً بأمنية يتمناها مخافة أن يلجئه طول البحث إلى الكفران والجحود ، فتاوه مشتاقاً إلى الحقيقة ، ثم تمنى خاصة واحدة من خواص الملائكة ، فغض بصره عن حياتهم السرمدية ، وعن سعادتهم الأبدية ، ولم يرج سوى الإلهام له وللناس : لأن الإلهام هو الذى أرضى الملائكة ربها فسمعت وأطاعت ، وحرية التفكير هى التى بعثت البشر على الانطلاق فخضعوا طوعاً أو كرهاً ؛ ولكن الذين خضعوا كارهين ما برحوا يستغربون لماذا ألهم الله غيرهم الطاعة فأنشدوا لحن الخلود ، ولم يلهمهم هم فعاشوا فى شقاء من بعده جحيم ؟ ..

« ٩ — إن ما أغناه من الملائكة ليس حياتهم السرمدية ،

لا ، ولا سعادتهم الأبدية !

ولكنه الإلهام . هذه الحاسة التى يستطيع بها القلب الجحود ،

أن ينشد لحن الخلود ! »

ويخيل إلى الشاعر أن الله أجابه إلى رجيته ، فأنار بصيرته بوميض من الإلهام ؛ فإذا هو لا يكتم فرحه بما يجول فى نفسه ، ولكنه يقر بأنه لا يقدر على إبداء هذا المعنى السامى الذى انكشف له ، فكان أعظم من الأمواج الصاخبة ، ومن الصواعق الغاضبة ، فيترك سره لليل ليظهر الناس عليه :

« ١٠ — يســـاور نفسى شىء أرق من الصَّبا اللعوب ،

سيذيعه الليل ويُفشيه !

شىء أعظم من الموج ، ومن الصـــاعقة الغضوب ،

وقلبى لا يستطيع أن يبديه ! »

ويقارن لامرتين بين هذا الوميض الذى انكشف لبصيرته وبين أسرار الطبيعة التى احتجبت عن بصره ، ويتسمّع إلى لحن الوجود النفاذة إلى أعماق النفوس ، فيرى أنه لم يؤت من الإلهام إلا قليلا ، ويرى أن لتَّبج البحر لحناً أوقع من لحنه ، ولجذوع الغابات نَغَماً أروع من نَغَمه ، وللعواصف الهوج نشيداً أقوى من نشيده ، وللأنهار الجارية أغاريد أحلى من أغاريده : فالبحر لا يقذف إلى ضفافه أمواجه إلا ليسمع شكواها ، وجذوع الغابات لا ينحنى بعضها إلى بعض إلا لتلحن نجواها ، والعاصفة لا تملأ صدر السحاب إلا لتضاعف صوتها فى أعماقه ، والأنهار لا تتنفس إلا لتعلم الناس موسيقاها ؛ فلكل منها مزمار يطلق منه أنغاماً تسبح بحمد الله وتقدس له ، وكلٌ قد علم صلاته وتسبيحه ... أما الإنسان فإنه مهما صفت نفسه وراق قلبه يتمنى أن يحسن الغناء كما تُحسنه الأمواج ، والجذوع ، والعواصف ، والأنهار ، وكل مظهر من مظاهر الطبيعة البكر ، ثم يجد أمنيته تتصاعد فى عالم مجهول ، ثم لا يدرى أتعود عليه بالإخفاق أو النجاح . إلا أنه أخيراً يحقق فيعلم أن مزماره من صنع يده وهو لا يصنع إلا كاملا ، وأن مزامير الطبيعة من صنع الله وهو لا يصنع إلا كاملا ...

« ١١ — أيها الخضم الذى يقذف إلى ضفافه أمواجه الشاكية !

يا جذوع الغابات المتناجية !

يا عاصفة يمتلئ بها السحاب ، ويا أنهاراً أنغامهـــا خرير !

آه ! لو أوتيت هذه المزامير ! »

ويلتفت الشاعر إلى نفسه ، ثم يخاطب روحه التى تمنَّت كثيراً ولم تجب إلا قليلا ، ويعجب كيف يصبر نفسه مع الحب الذى يضطرم فى أحشائه كأنه نار لا ينطفئ لها لهيب ، أو إعصار ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، ويتألم لهذه الروح التى جعلت حب الله صلاتها وتسبيحها ، وتقربت إليه بخفى ندائها ، ولم ترْجُه إلا أن يشرق عليها بنور معرفته ، لينقذها من حماسة كلها لهيب ، ومن ذهول كله وحشة ، ثم لم يستجب لها بشىء . ولو شاء أن يستجيب ، لأسر فى أعماقها اسمه الحبيب؛ ولو أسر اسمه لرضيت روح الشاعر ، واطمأن قلبه ، واهتدى عقله .

« ١٢ — وا روحاه ! هذا الإله الذى يضرمك حبه كأنه نار ..

أو تحترقين به كأنه إعصار !

لو استجاب – وأنت مشدوهة ذاهلة — لحواسك الجياشة اللاهفة،
لأسر اسمه في لفظة واحدة!»

وهنا يهتف بلامرتين صوت خفي : لا تعجل فإن الله يسر اسمه ، وما عليك إلا تلتمس زمانه ومكانه لتسمعه : يسر اسمه في أذن الطبيعة فتهمس به شفتاها وهي مختلية في صومعتها ، بعيدة عن الدنيا وضجتها ، قريبة من السماء ورحمتها . . . حينئذ تجلس الطبيعة إلى السماء جلسة المتعلم إلى المعلم ، فتحفظ منها اسم الله وتناجيه معها ، ثم تنتظران كلتاهما تنفس الصبح ليفضي إليهما بأسرار الملأ الأعلى ، أو ترقبان عتمة الليل لتتسمعا سمر الكواكب ، فما يسمر منها كوكبان ، إلا على ذكر الخالق الرحمان .

« ١٣ — إن هذا الاسم لسر تهمس به الطبيعة في الخلوات ،
كما تحفظه السموات !
وكلما طلع الفجر أفضى بهذا السر ، وكلما تسامر كوكبان ،
كان صداهما الشجي الفتان!»

ويفرح الشاعر بما ألقى إليه الهاتف ، ويظن أنه وقف منه على السر المنشود ، وأنه قد وصل به إلى اسم المعبود ، فما عليه إلا أن يسهر ليله فيسمع الكواكب السامرة ، أو يثب مع الفجر ليعي أسراره الباهرة . . وفي هذين الوقتين السعيدين يريد أن تمسي كلها حواسه أذناً تسمع وقلباً يعي ؟ بل يريد أن تمسي العواصف والأعصار ، والأرض والنيران والبحار كلها آذاناً صاغية ، لأن من سكت في هذين الوقتين فإنما يسكت لنفسه ، ومن ضج فإنما يضج عليها . ويريد من الرياح أن تقف لتتعلم هذا الاسم بعد أن طربت بألحانه ، ومن السموات أن تسترجعه وتردده بعد أن ثملت بخمرة عرفانه : فقد « خشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً » .

« ١٤ — إن العواصف والأعصار ، والأرض والنيران والبحار ،
خليقة أن تسكت لسماعه !
وإن الرياح الطروب بألحانه ، حرية أن تقف لعرفانه ،
والسموات لاسترجاعه ! »

وما أحوج المتألم إلى ذكر هذا الاسم المعظم وترداده ، لأن لموسيقاه رنة تشفي السقيم . ؟ ومن أجدر من لامرتين بالراحة وهو تعب ، وبالشفاء وهو عليل ، وبالسرور وهو حزين ؟

لقد كان في الأثناء مضطرب الفكر ، موزع النفس ، متزايل المشاعر ، حتى أنه نظم قصيدته المعروفة (مالروحي حزينة Pourquoi Mor âme Ea est Triste) فلم يكن أحب إلى قلبه من وسيلة يتحول بها من أزمات نفسه الحادة إلى السكينة والاستقرار

ألا وإنه قد وجد هذه الوسيلة ، وهي التي ستأسو ما جرحته يد الحياة ، وهي التي ستحيل وادي أتراحه جنة أفراح . فليقذف بحزنه بعيداً ، وليلق بأساه ظهرياً ، وليستدبر كل ما يعكر عين قلبه ، وليستقبل الحياة من جديد برضا وارتياح !

وتغمره السعادة وتلابس روحه ، ويضع في كفة ميزان ما نال من لذتها الحاضرة وفي كفة أخرى ما لازمه من ألم التعاسة الماضية ، فيجد نعيمه أرجح ؛ ويلقى التذاذه أغلب ، فلا يقيم لطول الزمن وقصره وزناً ، ويرى أن لحظة إيمانه تعادل إعدام حياته ، ويخشى أن تفارقه هذه السعادة التي لا يمكن أن تدوم لأنها بسعادة الملائكة أشبه ، وهي بين البشر كالنسيم المعطر يضوع بنفحاته ، ثم يعود من حيث أقبل تاركاً هذا المأخوذ برائحته للأعاصير والعواصف ، وللرياح والأنواء ، يغالبها وتغالبه ويصارعها فتصرعه .

فخاف أن تزايله هذه السعادة إذا بقي على قيد الحياة ، فتمنى أن تكون ختام حياته ، وآخر لحظاته ، ليلاقي الحقيقة التي سمى إليها بوجه ناضر ، وليقف في أول شاطيء ما لخضمه من آخر : فأرسل هذه الأبيات الأخيرة بحرارة الشاعر ، وحماسة المؤمن :

« ١٥ — هذا الاسم وحده معاداً غير ممنون قمين أن يأسو سقامي
في هذا الوادي من الآلام !
جدير بي أن أهتف غير محزون : لينصرم آخر أيامي ،
فقد مجدت الإله ، ومرحى بالحمام!»

وإنك لتحس في هذه القصيدة روحاً متصوفة تذكرك بالذين سلفوا من أصحاب النزعة الروحية المجردة ، فمن أين لهذا الشاعر مثل هذه الروح ؟

ويزول عجبك متى علمت أن لامرتين — وإن لم يتلق التصوف علماً ، أو يذقه مسلكاً — كان صوفي المزاج ، مستمداً

طرائف من العصر المملوكي :

الســـبعة الشهب

للأستاذ محمود رزق سليم

جرت عادة الشعر، أو اعتادت الطبيعة الشاعرة في كل أمة، وفي كل جيل من أجيالها أن تنجب، وأن تلد لنفسها من نجبائها رسلا يؤدون للناس رسالتها، ويقضون دينها، ويوفون للحياة حقها. فيكونون سريرتها النابضة وبصيرتها الوامضة، وبنودها الخافقة ولسنها الناطقة. ويحيون في جيلهم دولة الشعر والأدب.

ولو أننا تتبعنا العصر المملوكي من أوله إلى آخره، وهو زهاء قرون ثلاثة، تضم أجيالا ستة — إذا قدرنا لكل نصف قرن جيلا — لوجدنا في كل جيل منها حلبة من الشعراء، جالوا في الميدان، فرسان رهان، مالكين الأعنة شارعين الأسنة. والأدب اللباب مسلس لهم في الزمام، مرخ في الخطام. ليصلوا منه إلى الغاية، ويوفوا على النهاية. ولأدركنا أن الشاعرية المصرية ما كانت قط عقيما، وأن شعراءها ما كانوا أبداً مقصرين.

وإذا ذكرنا ما كان يحيق بالمصر وأدبائه، من مثبطات الهمة وموهنات العزيمة، ومن منغصات العيش ومقعدات الأمل ومؤيسات الأدب، ثم رأينا أن شعراءه — بالرغم من هذا — انطلقوا في كل واد، وسرحوا في كل مسرح، حتى اتسعت في القول آمادهم، وبعدت آفاقهم، وقضوا حق الشعر فخالفوا منه أفانين، وأدوا رسالة الأدب فأبدعوا منه آيات. لعرفنا أي شعراء وأي أدباء كان هؤلاء الأسلاف.

وترى بين المتعاصرين منهم — فيما ترى — وشائج الأدب موصولة، وصلاته حافلة، وروح سارية متوثبة، ودعوته قائمة منشورة. لا يخلو أحدهم من مطارحة صديق أو معارضة رفيق، أو مداعبة صاحب، أو مفاكهة خليل، أو مسامرة نجي، أو ممايثة شجي. أو مسابقة إلى مكرمة شعرية، أو مباراة في مأثرة أدبية.

وأولى حلباتهم حلبة الجزار والوراق، وابن عبد الظاهر والشاب الظريف. ثم حلبة ابن نباتة والحلي والصفدي وابن الوردي والشهاب بن فضل الله. ثم حلبة القيراطي والموصلي وابن مكانس وابن أبي حجلة. — وهكذا لا تكاد تخلص من حلبة إلا إلى أختها، ولا تغادر طائفة إلا إلى غيرها. وإذا ذهبنا ننوه برجال

للترهب لو تهيأت له الظروف لنشأته في بيت يقدس التقى والزهد والعفاف.

وإني لشاعر في قرارة نفسي بأن هذا المقال موجه إلى طائفة من الناس تتذوقه، وقد يقرؤه غيرهم فلا يجدون الحلاوة التي وجدوها. ولقد أحسن لامرتين إذ وجه هذه القصيدة مع قصائد أخرى من نوعها تجاوز الأربعين في ديوانه (أنغام شعرية ودينية Harmonis Poétiques ét Religieuses) إلى طائفة خاصة وصفها في مقدمة الطبعة الأولى بقوله :

« في هذه الدنيا قلوب حطمها الألم، ونبذها المجتمع، تنزع إلى عالم أفكارها وإلى عزلة أرواحها لتبكي أو تنظر أو تعبد. فهل أطمع أن يدعو أصحابها أشعاراً تقدس العزلة كما يقدسونها إلى الشعور بالارتياح نحو أنغامها، وأن يقولوا أحياناً إذا أصاخوا إليها : « إننا لندعو بأقوالك، ونبكي بدموعك، ونبتهل بأناشيدك ؟ » . لو أن بعض هذه الأرواح التي ليست في هذا العالم مطلقاً تستجيب في سرها لأصواتي الخافتة الضعيفة. ولو أن بعض القلوب التي ما زالت قاسية تتفتح وتذرف دمعة جديدة؛ ولو أن بعض هاتيك الأرواح الحساسة التقية تفهمني وتعرفني وتبلغ سويداء قلبي وتُتمّ بينها وبين نفسها ألحاناً لم أزد على أن ضربت على بعض أوتارها فإن هذا حسبي، وإن هذا لغاية متمناي، بل إن هذا لأبعد من أن أرجوه ! »

وإني لأعتز بهذه الكلمة الجياشة بأنبل العواطف الإنسانية في توجيه هذا المقال الذي أرجو مخلصاً أن يكون فاتحة لهذه الموضوعات.

وبعد . . . فهذه أمنية الشاعر كما صورها لامرتين : روح تسبح، وخيال يحلق، وقلب يؤمن، وسعادة تغمر، ورضا واطمئنان يجملان الحياة.

صبحي ابراهيم الصالح

كل حلبة عادين مآثرهم ، ذاكرين مفاخرهم ، لاحتاج المقال إلى أكثر من مجال .

والسبعة الشهب الذين عنونا بهم المقال ، يكونون حلبة من تلك الحلبات ، أو على وجه أدق هم فريق من حلبة تعاصر رجالها وتمدد أبطالها . وقد اجتمعوا في القاهرة في وقت واحد ، وكان كل منهم يلقب بشهاب الدين وهم سبعة من الشعراء الذين ذاع صيتهم وملأ شعرهم فجاج القاهرة وغمر أسماعها ، حتى أطلق عليهم القاهريون هذه التسمية « السبعة الشهب » وعرفوا بها ، وسجلتها لهم كتب الأدب والتاريخ .

هؤلاء الشهب السبعة هم : الشهاب بن حجر العسقلاني ، والشهاب بن الشاب التائب ، والشهاب بن أبي السعود ، والشهاب ابن مباركشاه الدمشقي ، والشهاب بن صالح ، والشهاب الحجازي ، والشهاب المنصوري .

لمت هذه الشهب معا في سماء القاهرة في أواسط القرن التاسع الهجري ، وليسوا أول الشهب اللامعة بها ولا آخرها ، فقد سطع بالقاهرة من الشعراء غيرهم من يدعى « شهاب الدين » مثل شهاب الدين بن العطار المصري المتوفى عام ٧٩٤هـ ، ولكن ميزة هؤلاء المتشابهين في ألقابهم وحرفتهم أنهم تعاصروا واجتمعوا بها فاقترنت ألقابهم ، وأضفى عليهم هذا التعاصر والاجتماع ثوبا من الجلال والشهرة .

وفضلا عما اشتهر به كل منهم على حدة من الفضل ، عقدت المودة أواصرها بينهم — أو على الأقل بين بعض منهم وبعض ، واتصلت بينهم وشائج الأدب وروابط الفن ، فتبادلوا بالشعر مقارضات الثناء ومطارحات الإخاء ، ونمت فيهم مظاهر التعاطف والألفة مع التسابق في مضمار الأدب .

أما شهاب الدين بن حجر العسقلاني فهو قاضي القضاة العالم الفقيه الحافظ الراوية المؤلف المؤرخ ، صاحب كتاب « الدرر الكامنة » و « فتح الباري » و « الإصابة » وغيرها من ذخائر الفقه والتاريخ والحديث . وهو الأديب الشاعر الناثر . وفي إحدى مقالاتنا السابقة جلينا صفحة من أدبه وروينا فيها طرفا من شعره ، ذاكرين أن له ديوان شعر مخطوطا قيما لا يزال قابعا مجفوا في رف من رفوف دار الكتب المصرية . ولا بأس هنا أن نذكر أنه قال الشعر في أغراض عدة منها النبويات والمدائح والإخوانيات والغزل وغيرها . وقد وشح وقطع ، وطارح وورى وألغز وحاجى ، إلى غير ذلك .

ومن لطيف أغزاله قوله :

صب لناديك بالأشواق ممعود ... فقيد صبر عن الأحباب مفقود
ناءعن الأهل والأوطان مغترب ... وواحد ماله في الصبر موجود
متيم قد بكى بعد الدموع دما ... كأنما هو في عينيه مفصود
النار ذات وقود في جوانحه ... شوقا وفي خده للدمع أخدود
يا مخجل الشمس بالأشواق إن فتى ... طلعت في داره يوما لمسعود
أسرت قلبي ومذ حجبت عن بصري ... تيهـا فكان له بالقرب تبعيد

روى أن شهاب الدين بن مباركشاه مدح ابن حجر بقصيدة دالية . وروى أن شهاب الدين الحجازي كان يطارح ابن حجر شعراً .

وكان ابن حجر أول شهاب منهم خبا ضوءه وغاب شعاعه ، وأسلم للمغيب ، وكان ذلك في عام ٨٥٢هـ وقد رثاه الشهابان الحجازي والمنصوري . فقال أولهما من قصيدة رائية :

كل البرية للمنية صائره ... وقفو لها شيئا فشيئا سائره
والنفس إن رضيت بذا ربحت وإن ... لم ترض كانت عند ذلك خاسره

ومنها يصفه :

فكأنه في قبره سر غدا ... في الصدر والأفهام عنه قاصره
وكأنه في اللحد منه ذخيرة ... أعظم بها درر العلوم الفاخره

وذكر الشهاب المنصوري أنه سار في جنازته ، فأمطرت السماء على نعشه ، وقد قرب إلى المصلى ، ولم يكن الوقت وقت مطر فقال :

قد بكت السحب على ... قاضي القضاة بالمطر
وانهدم الركن الذي ... كان مشيدا من حجر

أما شهاب الدين المعروف بالشاب التائب فهو أحمد بن علي ابن محمد القرافي القاهري الشافعي . ذكر السخاوي في الضوء أنه كان أديبا فاضلا جيد الخط ، أخذ العلم والأدب عن ابن

الهمام والشمنى والحصنى ، وقرأ توضيح ابن هشام . وأنه كان يطارح بشعره . وممن طارحهم الشهاب المنصورى ومن شعره موريا فى حسناء اسمها شقراء :

سبقت لميدان الفؤاد بحبها شقراء تجذب مهجتى بعنان
فترا كبت حمر الدموع وشبهها مذ جالت الشقراء فى الميدان

والشاب التائب هو ثانى المودعين من الشهب ، فقد توفى عام ٨٦١ هـ .

وبهذه المناسبة نذكر أن هناك شابا تائبا آخر ولد بالقاهرة سنة ٧٦٧ هـ ، واسمه أحمد بن عمر بن أحمد ، ولقبه شهاب الدين أيضاً ، كان يتعاطى العلم حتى عد فى الفضلاء ، ويجلس على موائد الأدب حتى عد فى الأدباء . وكان ينظم الشعر ويميل إلى الصوفية حتى اعتقد فيه بعض الناس ، ومات بدمشق عام ٨٣٢ هـ . روى ذلك السخاوى فى الضوء أيضاً .

أما شهاب الدين بن مباركشاه ، فهو أحمد بن محمد حسين القاهرى الحنفى . تلقى العلم على ابن الهمام وابن الديرى ، وغيرهما . وصنف بعض الكتب ، ومنها كتب أدبية مثل « السفينة » . وبرع فى نظم الشعر ، قال عنه ابن إياس : « كان من أعيان الشعراء » ، حسن اتصاله بكثير من أعيان عصره ومنهم ابن حجر العسقلانى ، وقد روينا أنه مدحه بقصيدة دالية . ومن شعره يشبه عشرة بعشرة قوله : ·

فرع جبين محيا قامة كفل صدغ فم وجنات ناظر ثغر
ليل هـلال صباح بانة ونقا آس إقاح شقيق نرجس در

وله فى القناعة :

لى فى القناعة كنز لا نفاد له وعزة أوطأتنى جبهة الأسد
أمسى وأصبح لا مسترفدا أحدا ولا ضنينا بميسور على أحد

والشهاب بن مباركشاه هو ثالث من توارى من الشهب ، فقد توفى عام ٨٦٢ هـ .

أما الشهاب الرابع فهو شهاب الدين بن أبى السعود ، وكان هو والشهاب بن صالح كثيرى المطارحة . وقد توفى فى مكة عام ٨٧٠ هـ .

وشهاب الدين بن صالح ، اسمه أحمد بن محمد بن صالح ، قال عنه ابن إياس « كان عالما فاضلا وأديبا شاعرا ماهرا » ويعرف بابن صالح ، وبسبط السعودى . والسعودى هو جده شمس الدين كان عالما وأديباً مصنفا .

وقد أكب ابن صالح على دراسة علوم الدين والعربية حتى برع فى كثير منها ، متتلمذا على جلة شيوخ عصره مثل القاياتى والشمنى والنورى . وأقبل على فنون الأدب حتى حذقها ، وأجاد فى نظم الشعر ، فانسجم لفظه ومعناه . وطرق أبواب البديع والإخوانيات ونظم العلوم . وطارح أنداده من كبار الشعراء ويقال إنه كان أرق شعراء عصره نظما . وبفضله صديقه شرف الدين العطار على ابن حجر العسقلانى وابن نباتة المصرى . وكان هو وشهاب الدين بن أبى السعود فرسى رهان . واتصل بأعيان عصره ومنهم الكمال ابن البارزى . وكان ذكيا سريع الإدراك . وقد نظم العقائد النسفية شعرا . ويحدثون عنه أنه هجر الشعر بأخرة وجنح إلى العلوم .

ومن شعره يشبب بمن اسمه « فرج » ويورى ومضمنا :

شكا فؤادى هم الصد يا فرج وفيك أصبح صدرى ضيقا حرجا
واستيأس القلب حتى رحت أنشده يا مشتكى الهم دعه وانتظر فرجا

ومدح السخاوى صاحب الضوء اللامع ، ومن قوله فيه :

وقد حفظ الله الحديث بحفظه فلا ضائع إلا شذى منه طيب
وما زال يملا الطرس من بحر صدره لآلىء إذ يملى علينا ونكتب

ومات ابن صالح فى عام ٨٧٣ هـ . وهو خامس الشهب ظعنا .

أما سادسهم فشهاب الدين الحجازى ، المولود فى القاهرة عام ٧٩٠ هـ . واسمه أحمد بن محمد بن على الأنصارى الخزرجى الشافعى . كان سريع الحفظ . وقد بدأ حياته التعليمية بدراسة مذهب الإمام الشافعى وحفظ حديث الرسول عليه السلام . وغير ذلك من علوم الدين . ثم أقبل بجماع نفسه على الأدب ، وأجاد فى قرض الشعر حتى طار صيته فى الآفاق ، وطارح العسقلانى ، وراسل الشهاب المنصورى ، وغيرهما .

وكان الحجازى خفيف الروح لطيف المعاشرة طريف المحاضرة . ويبدو لنا أنه كان عالى الهمة وثابا إلى المكرمات الأدبية ، فقد روى أنه جمع شعره ونثره فى ديوان . وله مختصر فى شرح

المقامات . وله شرح على المعلقات . وصنف كتبا أدبية عدة منها تذكرة فى نحو خمسين مجلدة ، وكتاب قلائد النحو فى جواهر البحور . وكتاب فى الألغاز وكتاب فى الحماقة مرتب على حروف المعجم . — وفى دار الكتب المصرية نسخة مخطوطة محلاة بالذهب من كتابه « روض الآداب » وهو مجموعة أدبية مرتبة على خمسة أبواب : الطولات والموشحات والمقاطيع والنثريات والحكايات . ويبدو أنه لم ينجب ، وذلك لقوله :

قالـــوا إذا لم يخلف ميت ذكرا
ينسى ، فقلت لهم فى بعض أشعارى
بعد المات أصيحابى ستذكرنى ... بما أخلف من أولاد أفكارى

ومن شعره :

قصدت رؤية خصر مذ سمعت به ... فقال لى بلسان الحال ينشدنى
انظر إلى الردف تستغنى به وأنا ... مثل المعيدى فاسمع بى ولا ترنى

وقد مات الشهاب الحجازى عام ٨٧٥ هـ عن خمس وثمانين سنة تقريباً ، فرثاه صديقه الشهاب المنصورى بقصيدة منها :

لهف نفسى على أفول الشهاب ... تحفة القوم نزهة الأصحاب
كان فى مطلع البلاغة يسرى ... فتوارى من الثرى بحجاب
فقدت ره أيامى المعـــانى ... ويتامى جـــواهر الآداب
هطلت أدمع السحاب عليه ... وقليل فيه دموع السحاب

وبموت الحجازى أصبح الشهاب المنصورى وحيداً لا شهاب غيره فقال رثى زملاءه الستة :

خلت سماء المعانى من سنا الشهب ... فالآن أظلم أفق الشعر والأدب
تقطب العيش وجها بعد رحلة من ... تجانبوا بالمعانى مركز القطب
تعطلت خرد الأيام من درر ... كانت تحلى بها منهم ومن ذهب
لو تعلم الأرض ماذا ضمنت بطرت ... بهم كما يبطر الإنسان بالنسب
ولو درى الملك أن الأرض قبرهم ... لود نشقة عرف من شذى الترب

وقد أصبح المنصورى من بعدهم شاعر عصره غير منازع ، ورأس أدبائه غير مدافع . واسمه أحمد بن محمد بن خضر السلمى ، ويعرف بالهائم القاهرى . كان جميل الهيئة متعففاً عن الناس . مهر فى نظم الشعر وسلك به أبواب الغزل والوصف والمديح والرثاء وغيرها . وقد عاش بين سنتى ٧٩٩ هـ ، ٨٨٧ هـ ، ومات بعد أن نيف على الثمانين ، وبعد فالج أصيب به فأقعده زمنا . وقد جمع شعره فى ديوان كبير . وتقدم لنا من نظمه أمثلة . ومن قوله فى الشكوى :

ليت شعرى وفى الزمان خطوب ... وبلاء يختص بالأحـــرار
هـل ليت قفى عليه طبيب ... من كفيل أو آخـــذ بالثار

وقال متغزلا فيمن اسمه « شاهين » مع التورية :

قد صاغك الله من لطف ومن كرم ... وزاد حسنك بالإحسان تزيينا
فاخفض جناح الرضا واصطد طيور وغى
من جو إخـلاصنا إن كنت شاهينا

هؤلاء هم السبعة الشهب . ولو مدنا التاريخ بالكثير من أخبارهم لكان للبحث فيهم مجال أوسع ، ولكن هذه الآثار التى قدمها عنهم تدل على علو كعبهم ورسوخ قدمهم فى الأدب والشعر ، فهى منهم كالعنوان من الكتاب ، واللمعة من الشهاب .

محمود رزق سليم
مدرس الأدب بكلية اللغة العربية

نامي ...

للأستاذ إبراهيم محمد نجا

نامي فإن الليل قد جاء … ومضى النهار، وكان ضوضاء
والنهر نام، فلم يعد ماء … لا ... بل ملاكا رائع الطهر

نامي لدى صدري؛ ففي صدري … دنيا من الأنغام والشعر
إن كنت أنت خميلة الزهر … فأنا الهزار يهيم بالعطر

واستقبلي حلم الصبا العذب … فيه تطير عرائس الحب
هو صورة لنوازع القلب … ما أروع الصور التي تغري!

إني سأقضي الليل سهرانا … أرعى الصبا غضًّا وفينانا
لا ... لا تخافي لست سكرانا … إني بدأت أفيق من سكري

لا بأس إن قبلت يا ليلى … ثغراً يضيء بنوره الليلا
أترين أني آثم؟ كلا … ليست أثاما خمرة الثغر

لا بأس إن داعبت يا ليلى … (كأسين!) ما أغلى وما أحلى!
أنا إن لعبت فلم أزل طفلا … لعب الطفولة غير ذي وزر

قومي فإن الفجر قد لاحا … والبلبل الغريد قد راحا
يستقبل الأنوار صداحا … ويطير من زهر إلى زهر

والزهر داعبه الندى فصحا … واهتز في أوراقه فرحا
قد خلته في غصنه قدحا … في كف أغيد مائل الخصر

وسرى النسيم مُنى وأفراحا … تشدو فيشدو الكون أرواحا
وتثير عطر الزهر فوّاحا … فإذا الوجود يفيض بالسحر

هـذا الصباح يبث في نفسي … دنيا من الأفراح والأنس
هاتي الدام، وقربي كأسي … أو قربي شفتيك من ثغري

قومي اسمعي أنغامي السكرى … تذكي الحنين، وتبعث الذكرى
قد أرسلتها نفسي الحيرى … لتذيع ما بالنفس من سر

قومي نطر في أفقنا السامي … أنشودة من وحي أحلامي
ذهب الظلام، وتلك أنغامي … تهتز بين أشعة الفجر

قومي نغني غنوة الحب … فوق الربا الريانة العشب
ما بال هـذا الواله الصب … لا يستقر اليوم في صدري؟!

ما باله كالطائر النزق … طال الحنين به إلى الأفق؟
تغضي الحياة به على قلق … من ذلة الحرمان والأسر!

قومي اسأليه الآن في عطف … ماذا تريد؟ وما الذي تخفي؟
سيجيب: أمنيتي التي تشفي … هي قبلة من ثغرك البكر

هي قبلة تهدى إلى نفسي … أمل الشباب، وبهجة العرس
وتنير مثل أشعة الشمس … فيذوب فيها كالندى عمري

ساعي البريد

للأستاذ شفيق معلوف

ساعي البريد وما ينفك منطلقاً … وكل باب عليه غير موصود
يسعى بأكداس أوراق مغلفة … تفوح منهن أطياب المواعيد
خلف النوافذ أجفان مشوقة … إليه تخفق من وجد وتسهيد
بدا فهز عقود الغيد مقدمه … هز النسيم لحبات العناقيد
كم قبلة من فم العشاق يحملها … على يديه ويهديها إلى الغيد

يا ساعياً بابتسامات توزعها … على الشفاه بلا منّ وترديد
كم وجه أم عجوز إن برزت له … لم تبق من أثر فيه لتجعيد
تلقي إليها كتاباً إن يصب يدها … شدته باليد بين النحر والجيد
كأن كل غلاف منك ملتحف … بابن إلى صدر تلك الأم مردود

وكم وكم رقعة كالحظ مشرقة … وهبتها كل كابي الحظ منكود
يا واهباً كل بشرى حين جدت بها
راحت تكذب عنك الفقر بالجود
أبعدَ بذلك فينا ما بذلت ترى … عينيك في مأتم والناس في عيد
لو تعلم الناس يوماً أنها سلخت … أيامها البيض من ليلاتك السود!

شفيق معلوف



كتاب الكندى إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى (١)

حققه وقدم له الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

لم تمض إلا أربعة أشهر أو خمسة على كتاب « معانى الفلسفة » الذى ألفه الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى حتى أتحف جناح الفلسفة فى المكتبة العربية بكتاب من كتب فيلسوف العرب يعقوب الكندى ، وهو الكتاب الذى بعث به أول فيلسوف من فلاسفة العرب إلى الخليفة العباسى .

ولم يكن غريباً على فلاسفة المسلمين أن يبعثوا بكتبهم إلى الخلفاء ، ولم يكن جديداً على « الكندى » نفسه أن يراسل الخلفاء فى مسألة من مسائل العلم ، فقد ذكر ابن أبى أصيبعة فى « طبقاته » أن للكندى رسالة إلى المأمون « فى العلة والمعلول » .

وتحمل مراسلات الفلاسفة للخلفاء والأمراء معنى تشجيع هؤلاء لأولئك ، وهى فى ذاتها دلالة من الواقع والتاريخ على ما كان يقوم به الخلفاء من احتضان العلماء وتقريبهم ومعونتهم على أداء الرسالة الجليلة التى نصبوا أنفسهم لها ، وأضنوا أنفسهم فى سبيلها .

وعنوان الرسالة نفسه « فى الفلسفة الأولى » يحمل سؤالا يرد على الخاطر لأول وهلة ؛ فهل هناك فلسفة أولى تقابلها فلسفة ثانية وثالثة ورابعة ؟ وهل هناك فلسفة أولى تقابلها على سبيل الطباق البلاغى فلسفة آخرة ؟ كما يقال فى الشهور القمرية جمادى الأولى وجمادى الآخرة ؟ وكما يقال فى صفات الله : هو الأول والآخر ؟؟

ظننت أول الأمر أن الفلسفة الأولى هى فلسفة اليونان التى اشتغل بها العرب فى إبان بهضتهم فى الترجمة . فقد أكبوا على فلسفة اليونان ونقلوها إلى اللسان العربى الذى كانت الفلسفة شيئاً جديداً عليه . ولكن الدكتور الأهوانى يقول فى مقدمته التحليلية النفيسة للرسالة إن اصطلاح « ما دون الطبيعيات » هو نفسه « الفلسفة الأولى » ص٥٥ ؛ وقد يكون ذلك مقبولا لو أن عنوان رسالة الكندى هو « كتاب الفلسفة الأولى أو ما دون الطبيعيات » ، ولكن العنوان هو كما يذكر الدكتور الأهوانى « كتاب الفلسفة الأولى فيما دون الطبيعيات والتوحيد » ، ويستنبط المحقق من هذا النص أن ما دون الطبيعيات غير التوحيد ، ولكنه ينسى ما يقوله الكندى فى أحد مواضع الرسالة أن الفلسفة هى علم الربوبية والوحدانية — أو التوحيد — وينسى ما يقوله الكندى فى موطن آخر : (إن علم العلة الأولى سمى بحق الفلسفة الأولى) .

ورسالة الكندى فى الفلسفة الأولى لا تزيد على نصف الكتاب المطبوع اليوم إلا قليلا . أما النصف الأول فهو تحقيق علمى دقيق فى ترجمة الكندى ونشأته ومنزلته فى تاريخ الفلسفة الإسلامية وأسلوبه فى الكتابة الفلسفية وتحليل الرسالة ذاتها ، وقد أضاف هذا التحقيق كثيراً من القيمة لهذه الرسالة التى كان للدكتور الأهوانى فضل نشرها فى لغة العرب لأول مرة ، وهو فضل نسجله دائماً مع الشكر لكل من يزيح ستراً عن أثر من آثار المسلمين إبان نهضتهم فى زماننا هذا الذى تدعونا فيه دواع كثيرة إلى كشف الغطاء عن كل أثر إسلامى صغر أو كبر .

وإذا كنا أخذنا فى عدد ماض من مجلة « الرسالة » على الأستاذ فؤاد جيمان عدم استيفاء التحقيق والتحليل لكتاب « ميزان الحكمة » الذى ألفه الحكيم الرازى ، فان الدكتور الأهوانى كان فى الحق بعيداً عن موضع المؤاخذة حين أخرج رسالة الكندى فى الفلسفة الأولى هذا المخرج الذى يجرى على أسلم قواعد نشر المخطوطات . وإذا كان لم يقع لصديقنا الأهوانى من مخطوط الكندى إلا نسخة خطية واحدة فانه فى الحق قد عنى نفسه فى التحقيق والمراجعة على الرغم مما عاناه من رداءة الخط وكثرة التصحيف وعدم الإعجام فى النسخ .

---

(١) نشر دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابى الحلبى — ١٤٨ صفحة من القطع الصغير .

ولا أقول إن تحقيق الرسالة الكندية المتصمية قد أوفى على الغاية ، وخاصة حينما لا يكون بين يدى الناشر إلا مخطوط واحد يجتهد فى تخريج الغامض من نصوصه على ما يقتضيه السياق حيناً أو على ما يوحى به الحدس أحياناً ... مما يحمل الناشر على أن يقول هذه العبارة التقليدية ... : (فى الأصل كذا ولعلها كذا) ولعل مايقع من اضطراب أوغموض فى أسلوب الكندى مردود فى بعض الأمر إلى ما عند الناسخين من تخليط وتصحيف . والدكتور الأهوانى يعترف مى بأن الكندى الذى تقع له العبارات البليغة فى بعض رسائله ويحدث له التعبير المشرق « فى رسالة فى الحيلة لدفع الأحزان » لا يقع له الغموض فى بعض ما كتب إلا حين يحمله التفلسف على التوعر .

وأخشى أن يكون الكندى مظلوماً فى الذى قيل من رداءة أسلوبه . فهل كان هو ينقل الرسائل عن اليونانية بنفسه أم كانت تنقل له ؟ فاذا كانت تنقل له فليس الذنب فى الأسلوب ذنبه ، ولكنه ذنب الناقل ... ألم يختلف مؤرخو الحكمة الإسلامية فى كتب الكندى اختلافاً يدعو إلى العجب ... فابن النديم يقول عن كتاب جغرافية بطليموس إنه نقل للكندى نقلا رديئاً ... ويقول القفطى إن هذا الكتاب (نقله الكندى إلى العربية نقلا جيداً) . فأنت تقف أمام هذا التناقض موقفاً لا تدرى وجه الحق فيه .

ويذكر ابن النديم أيضاً أن كتاب « الإلهيات » لأرسطو نقله أسطاث الترجم للكندى الفيلسوف . فنزيدنا شكا فى رسائل الكندى وصحة نقله إياها من اللسان اليونانى ... على أن صديقنا الدكتور الأهوانى لايبالى بأمثال هذه الشكوك ويمضى فى رسائل الكندى كأن الطريق إليها مأمون العثرات ...

ويظن بعض الناس عمداً أو خطأ أن الكندى مسيحى سريانى . وقد وقع فى هذا الوهم الفيكونت فيليب طرازى فى كتابه القيم « عصر السريان الذهبى » . ومن عجب أن هذا الكتاب طبع سنة ١٩٤٦ ، وطبع قبله كتاب للمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق وفيه نفى لمسيحية الكندى وتحقيق لهذه المسألة تحقيقا لا يدع مجالا للشك فيها . وأظن أن الكونت طرازى قد وقع له كتاب الشيخ مصطفى عبد الرازق لأنه يفتخر بمكتبته العامرة فى بيروت فما معنى الإصرار على الأمر بعد تبين الحق فيه ؟ ! وقد أشرت إلى ذلك فى مجلة « الكتاب » عدد فبراير سنة ١٩٤٦ ص ٦١٦ ، ولعل الدكتور الأهوانى رأى أن هذه الحقيقة فى إسلامية الكندى وعربيته لا تحتاج إلى مزيد من التحقيق أو التقرير .

والكندى لم يتهم بالانتساب إلى يونان كما يقول الدكتور الأهوانى فى صفحة ٢٣ . والظاهر أن المسألة اختلطت على الدكتور وهو ينقلها عن « المسعودى » فى كتابه « مروج الذهب » فلم يقل الكندى إنه يونانى ، ولكنه كان يذهب مذهب القائلين فى الأنساب أن يونان أخ لقحطان . وشتان بين هذا وذاك . أما الشاعر الذى هجا الكندى لهذا الخلط فى الأنساب فهو أبو العباس الناشىء من طبقة ابن الرومى فى الإجادة وما كان يستحق من الناشر هذا التنكير بقوله عنه « أحد الشعراء » ... وصحة البيت الأخير من أبيات « الناشىء » كما يلى :

وتخلط يونانا بقحطان ضلة لعمرى لقد باعدت بينهما جداً

ويظهر أن الكندى مبتلى باضطراب الناس فى حياته وفى آثاره وفى قيمته الفلسفية ؛ فالدكتور مذكور يقول عنه إنه كان ممهداً للفلسفة الإسلامية ولم يكن فيلسوفا . والدكتور أبو ريدة يقول عنه إنه كان فيلسوفا بالمعنى الواسع الذى يتمثل فى فلاسفة اليونان . والمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق يقول إن ما بأيدينا من آثاره لا يمكن من استخلاص مذهبه الفلسفى نسقا كاملا . وأغرب ما فى هذا الاضطراب أن شهرة الكندى كانت موضعاً للخلاف عند الناس . حتى أن الدكتور الأهوانى يقرر فى ص ٣٦ أنه كان عديم الشهرة ، وأن رداءة أسلوبه كانت علة فى عدم شهرته . وأين هذا من قول الناشر نفسه فى صفحة ٣٨ بأن الكندى اشتهر بالفلسفة ، وكأنه بهذا يناقض نفسه ... وأين هذا من قول القفطى عنه : (إنه المشتهر فى الملة الإسلامية بالتبحر فى فنون الحكمة الخ) .

بقيت كلمة واحدة فى مقدمة الدكتور الأهوانى لرسالة الكندى فى الفلسفة الأولى ، فقد بلغت من وضوح المقاصد وسلامة المنهج وسهولة التعبير مبلغاً نهنىء الأستاذ عليه ، وخاصة إذا قيست بالرسالة نفسها وما فيها من غموض فى بعض المواطن . وكأن الدكتور الأهوانى يعنى أن يقول بهذا الوضوح المقصود أن الغموض التعبيرى ليس دائماً من أدوات الفلسفة ولامن لوازمها .

محمد عبد الغنى حسن



جولات فى القاهرة

تأليف ر . ل ديفنتير

هى العناية الآلهية التى أنقذت القاهرة من التدمير كلما شبت الفتن واحتدمت الحروب. فتقاصرت دونها قنابل الألمان وما حشدوا من جيش وعتاد ، وتحطمت قبل أن تصل إليها قوى المغول المدمرة المخربة ، وارتد عنها الصليبيون فى ذلة وانكسار ، وبقيت القاهرة وحدها تحمل تراث الإسلام الفنى المجيد ، كاملا غير منقوص ، واحتفظت القاهرة بسلسلة متصلة الحلقات لكل عصور الأسر الاسلامية الحاكمة ، من يوم أن شاء الله لدينه أن يستقر على ضفاف النيل ... ونجد هذا التراث فيما ورثناه من عمائر وتحف ومخطوطات ، تظل دائماً تذكرنا بجمال الماضى وعظمته وجلاله ، وتظل دائماً تحفزنا على استرجاع مجد أجدادنا ، فنعيد للاسلام قوته وعزته وروعته .

فإن تكن المؤلفة قد اختارت القاهرة تجول بين آثارها الاسلامية شارحة أصولها الفنية فى هذا الكتاب ، فقد أحسنت الاختيار . وإن يكن للمؤلفة فى أعناقنا — نحن العرب — جميلا لفرط غيرتها وتحمسها لآثار الإسلام ، أو لأنها اتخذت من الصحافة منبراً تلقى من فوقه الإرشاد للعناية بآثار الإسلام ، فدفعت المسئولين إلى المحافظة عليها ، فإننا قوم لا ننكر الجميل .. ولكن الأمر الذى استحقت من أجله عطف جلالة الملك الراحل ورعاية جلالة الفاروق المعظم ، فأنعم عليها بنشان الكمال فى عيدها الثمانينى ، إنما هو صدقها فى دعوتها للآثار الإسلامية ، نراه واضحاً فيما نكتب من مؤلفات أو تلقى من محاضرات ، صححت بها شعور آلاف من الأجانب الذين كانوا لا يدرون عن القاهرة إلا تلك الاكاذيب المخترعة التى حشرها فى أدمغتهم مرتزقة الاستعمار ، وكتاب أقاصيص الخيال الدنيء .

وكتاب « جولات فى القاهرة » هو دراسة تاريخية وافية لمختلف العمائر الإسلامية ، من مساجد وأضرحة ومدارس وتكايا وقصور ومنازل خاصة ، أو قناطر وأسبلة وأسوار وبوابات مع إلمامة طيبة بمحتويات دار الآثار العربية وما ضمت من تحف نفيسة . وقد اتبعت المؤلفة فى تبويب كتابها هذا طريقة الجولات بحيث يستطيع القارىء أن يقوم بنفسه بهذه الجولات وأن يدرس الآثار الإسلامية فى القاهرة جملة وتفصيلا دون أن يصعب عليه الأمر أو يصيبه ملل أو كلال .

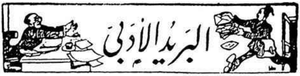
فيتناول الكتاب أهم الآثار القائمة فيقدم للأثر لمحة سريعة عن تاريخ حياة صاحبه ، والأحوال التى بنى فيها الأثر ، والآراء التى أثيرت حوله ، ويرد عليها ، ثم يدرسه من الناحية المعمارية ، ويشرح الأساليب الفنية التى اتبعت فيه ، والتأثيرات الغريبة التى اقتبسها الفنان المسلم بعد أن صقلها بما يلائم ذوقه وفنه ودينه

وبالرغم من أن الفنان المسلم كان منكراً لذاته ، ممتزاً بفنه ، فلم يكن كثير الاهتمام يذكر اسمه على كل العمائر التى بناها ، أو التحف التى صنعها ، إلا أن المؤلفة تشاء أن ترد إليه حقه واعتباره الأدبى فتقول : « ويبدو لى أن الفنان المسلم الذى عاش فى تلك الأيام كان عاشقاً للجمال لذاته ، بل كان مخلصاً فى محبته لنتاجه ، فترى مثلا صانع الفخار المصرى يفرغ غاية الجهد فى العناية (بشبابيك القلل) وهو يعلم تماماً أنها خافية محجوبة عن الناظرين » ...

وترد على الذين يتهمون المسلمين بهدم عمائر غيرهم ليحصلوا منها على مواد البناء : « حقاً أن المسلمين كانوا يستولون على أعمدة الكنائس المسيحية والمعابد المصرية القديمة ليستعملوها فى عمائرهم ... ولكن مسيحى إيطاليا كانوا أيضاً يتبعون نفس الطريقة ، فدمروا المعابد الرومانية الكلاسيكية ليحصلوا على أعمدتها » ...

وطالما نقدت احتلال القوات الانجليزية للقلعة واستعمالهم مسجد الناصر محمد بن قلاوون « فى سنة ١٨٨٥ كان هذا المسجد محولا إلى سجن حربى ، إلا أن أحد الضباط الانجليز زاد الأمر سوءاً تحوله إلى مخزن للذخائر فى سنة ١٩١٥ فبات عرضة للنسف بين لحظة وأخرى فيختفى من عالم الوجود أثر فنى جميل » .

على أن طول الاحتلال للقلعة ترك هذه المنطقة بكراً ، فى حاجة إلى الكشف والتنقيب « فان دراسة الأستاذ كريزويل لم



طيبة تكشف عن أسرارها :

ها هي ذي جمعية الآثار القبطية تسجل نصراً جديداً . وهي ، منذ إنشائها عام ١٩٣٤ ، تعمل دائبة حتى نالت تقدير الأوساط العلمية في العالم . وقد استطاعت أخيراً ، بفضل أريحية سيدة مصرية فاضلة ، أن تباشر حفرياتها الأولى . وعهدت بذلك إلى الأستاذ شارل بشتلي سكرتيرها النشط ، والعضو بجمعيات علمية ، مصرية وأجنبية ، عديدة ، والمعروف بأبحاثه القيمة في علمي الآثار والأجناس والتاريخ .

والآثار القبطية ، كما نعلم ، حلقة من حلقات الآثار المصرية ، يبدو تاريخ مصر بدونها ناقصاً . ولقد كانت مصر مسرحاً للمسيحية في أول عهدها الحافل بالآلام والاستشهاد . فانزل النساك في صحارى طيبة . وكان رهبان طيبة يتكاتبون على كسرات الفخار Ostraca ، ثم على الرقوق في عصر متأخر . فكان لرسائلهم تلك فضل الكشف عن طريقة معيشتهم ومشاغلهم والكثير من عادات عصرهم .

وفي ١٩١٤ قدر لمتحف المتروبوليتان للفن بنيويورك أن يكتشف ببلدة القرنة دير إبفانوس . وكان فيما اكتشف كسرات فخار وأوراق بردي تشير إلى دير الأنبا فيبامون .

وفي أواخر عام ١٩٤٧ قام الأستاذ شارل بشتلي بالكشف عن هذا الدير .

ودير الأنبا فيبامون من القرن الرابع الميلاد . وهو يقع من الأقصر على ثمانية عشر كيلو متراً ، في ظل صخرة عمودية تعلو إلى خمسة وعشرين متراً ، وقد طُمر تحت الرمال والأحجار . وقد وجد على الصخرة نقش جنائزي يذكر اسم راهب : الأنبا ابراهيم ، واسم الدير ، فقُطع الشك باليقين وشُرع في رفع الأنقاض . وقد اكتشف أولا مخزن للنبيذ ، وأكد ذلك تحليل المادة السوداء التي وجدت ببقايا الجرار . ثم الإسطبلات وحظائر

تمتد الأجزاء الشمالية من قلعة صلاح الدين ، أما الأجزاء الجنوبية الغربية من القلعة فقد عثر فيها على طغراء قايتباى وبعض الأقبية والعقود التي ترجع إلى القرن الرابع عشر مما يثبت لنا وجود عمائر في هذه المنطقة » .

وبعد أن أفاضت في شرح نواحي القوة في عظمة العمائر الطولونية ، وفخامة المساجد الفاطمية ، وجمال المدارس الأيوبية ، وجلال القباب ورشاقة المآذن المماليكية ، تكلمت عن الفن الإسلامي في مصر إبان الحكم التركي ، وأبانت كيف أن البلاد أصيبت بنكبة فنية قاسية على يد السلطان سليم الأول .

ويحدثنا التاريخ عن أن الأتراك ملؤوا سفائن من الفسيفساء ومصبعات الرخام (Marble Panel) وتحف خشبية منقوشة الخ . . . وحشدوا معها زبدة الفنانين المصريين وأرسلوهم إلى القسطنطينية — وأن واحدة على الأقل من هذه السفائن قد غرقت بما فيها من حمل غال ثمين .

وتنفرد دار الآثار العربية بمجموعتها المشهورة من المشكاوات الأسلامية . وتود المؤلفة أن توجه نظر القارىء إلى هذه الثروة الفنية الرائعة وتلح عليه بزيارتها والاستمتاع بجمالها . . . والحق الذي لا مراء فيه هو أن القاهرة تفخر بامتلاك كنزين ثمينين لم تر الدنيا مثلهما : هذه المشكاوات ، وكنوز توت عنخ آمون .

والكتاب من بواكير إنتاج « دار النشر للجامعات المصرية » أخرجته في ثوب فني قشيب تنافس به كبريات دور النشر الأوروبية ومحلى بحوالي نيف ومائة صورة لمختلف العمائر والتحف الإسلامية أكثرها من عمل الأستاذ كرزويل ، وخريطة مساحية كبيرة مبين عليها مواقع الآثار في مدينة القاهرة ، وقائمة طويلة بأسماء وتواريخ أهم الآثار الإسلامية بالقاهرة مرتبة حسب التدرج الزمني .

والكتاب رغم أنه جامعي في دراساته التاريخية الأثرية ، إلا أنه وضع في أسلوب رشيق جذاب وبطريقة يفيد بها المثقفين عموماً ، والزائرين أصحاب الوقت المحدد ، وعشاق الفنون الإسلامية المشغوفين بها .

(القاهرة) مصطفى كامل ابراهيم
وكيل اتحاد الثقافة الأثرية

الضأن والأفران والأهراء وملحقات الدير جميعاً .

واكتشف كذلك مومياوان ، ولا شك أن إحداهما للأنبا إبراهيم ، وهما ملفوفتان فى كفن من الكتان وقد حنطتا تحنيطاً كاملا . ولم يعثر على غيرهما . ولا شك أن الرهبان الآخرين دفنوا فى المقبرة القريبة من هذا المكان وقد اكتشفت من عهد قريب .

وقد عثر أيضاً على الخلوات والكنيسة التى لم يبق منها غير المصاطب ، وكان الرهبان يجلسون عليها وقت القداس ، ثم بعض صلبان طليت بالأحمر ، وبقايا صورة حائطية ، ونقوش عديدة .

ونظام الخلوات على طريقة القديس باخوميوس ، أى خلوات مشتركة ؛ فتتضمن الحجرة سريرين أو ثلاثة أسرة من البنيان .

ويظهر بعض الرسوم حالة المسيحيين حينذاك . فيبدو فيها آثار مصر القديمة وذكرى عهد وثنى غير بعيد .

اكتشف علماء الآثار مناطق اعتزال الرهبان فعلا ، كما أنهم وصلوا بفضل النقوش وغيرها إلى معرفة الكثير من عاداتهم وعادات عصرهم . ولكن دائرة الفكر والعقيدة بقيت مغلقة . فهل قدّر لهذا الكشف أن يفتح لنا ما أغلق ؟ إن الأستاذ شارل بشتلى بعد تقريره ليرفعه إلى جمعية الآثار القبطية ، فنرجو له التوفيق .

عدلى طاهر نور

فلسطين والأدب :

فلسطين ... اسم إذا ذكر دمعت العيون وتحرقت الأكباد وانفطرت القلوب ، لا من بغى الصهاينة ووحشيتهم ، ولا من شد أزر الدول الأجنبية لهم ، فلم يجل بخاطر عربى ومسلم يوماً أن يترك الصهاينة عدوانهم وشرهم ، أو يهجر الإنكليز خداعهم ومكرهم ، أو يعدل الفرنسيون عن خصومتهم وجنونهم ، أو يُعرض الأمريكان عن تألبهم علينا (وحرانهم) . . ولكن الذى تتقطع النفس عليه حسرات هو هذا الجمود الذى ران على عقول بعض الكبار فأبلاها ، وتغلغل إلى حبات قلوبهم فأقساها ، حتى غدوا لا يعدون فلسطين فى هذه المحنة المصيبة إلا بخطب وبيانات ووعود وتصريحات ، والشعوب مهتاجة ، والأعداء يبطشون ، والدنيا تنظر ، والتاريخ يرتقب ، ليروا ماذا نحن فاعلون!

فمن واجب الأدباء وقادة الفكر إزاء هذا أن يشعروا هؤلاء بواجبهم وينهضوا بهممهم ويشحذوا من عزائمهم . وللأدب فى هذا الميدان جولة وصولة ؛ فهو الذى يفصح عن رأى الشعب ويبين عن شعوره ، ويفتح العيون الساهية على الواقع المرير ، ويمرك بعض الآذان لينتبه أصحابها فيشعروا بشعور الناس ويفكروا بعقول الأمة ويتقدموا بعزيمة الشعوب ...

وها قد شق الأستاذ (الزيات) للأدباء الطريق وضرب أحسن المثل ، واستن الاستاذ (نقولا الحداد) هذه السنة الحسنة والأمل أن يسير أدباؤنا فى هذا الركب وينهجوا هذا النهج .

فطوبى لمن حطم الكأس وكسر الدف وودع الحب وهجر الروح وتقدم إلى حلبة الكفاح ليذكى النار ويلهب النفوس واهباً قلبه وقلمه (لفلسطين) حتى يأتى نصر الله . إلا أن نصر الله قريب .

المعادى (فتى الفيحاء)

الاتجاهات الدينية فى الفلسفة الحديثة :

هذا هو موضوع المحاضرة القيمة التى ألقاها الأستاذ البطاوى فى دار جماعة ابن رشد الثقافية فى الأسبوع الماضى . وقد استحق الأستاذ منا الإعجاب والتقدير حينما عالج هذا الموضوع رغم خطورته حيث تكلم عن الفوضى الإجتماعية والتضارب الفكرى والمذهبى بعد الحرب الثانية ، وحيث تكلم عما يبدو — « بعد اكتشاف السلاح الذرى » وقوف الدول الكبرى صاحبة الأمر والنهى عليه ، وعن خشية الإنسانية من الفناء إن هى أقدمت على حرب عالمية أخرى — ما يبدو بعد كل هذا وغيره من بشائر تتجه بالفلسفة الحديثة اتجاهاً شاملا سريعاً نحو الدين لكى تنقذ الإنسانية بوضعها إياها فى حماه الأمين ، وخاصة بعد أن تحقق كثير من الباحثين أن الفلسفة المادية تهوى بالمثل العليا إلى الحضيض وتدفع بالأمم إلى الأنانية البغيضة والتشاحن الذى يؤدى إلى الحروب والهلاك .

على هذا النمط سار الأستاذ فى محاضرته مستشهداً بأحدث الآراء فى الشرق والغرب للفلاسفة والباحثين فى هذا الموضوع مقارناً بينها وبين أقوال القدماء عقب الحرب السبعينية وبعد الحرب العالمية الأولى ليخلص من كل هذا إلى تلك النتيجة الخالدة : وهى أن « الفلسفة الحديثة بدأت بالفعل تتجه اتجاهاً دينياً » .

إلا أن إعجابنا بمقدرته لا يمكن أن يحملنا على التغاضى عن خطأ أو سهو عرض فى أثناء الحديث عن « الأثنينية Dualism » وأحب أن يتفضل فيحدد موقفه منه على صفحات هذه المجلة الغراء ؛ فإن له من الأهمية والخطورة ما يدركه كل دارس للفلسفة الحديثة

فكانا يعرف أن ديكارت لم يكن «دخيلا» على «الأثنينية» كما ذكر المحاضر فى كلامه عن الفلسفة فى فجر نهضتها الحديثة ؛ بل نعرف أنه كان « أثنينيا» إلى أبعد حدود « الأثنينية » ، وهو بعد حقاً وليس زعماً كما قال — مؤسس الإثنينية التى تقول بوجود الروح مع وجود المادة فى العصور الحديثة . وما كان هذا ليخفى على باحث مثل الأستاذ المحاضر يعلم تمام العلم أن جمهرة مؤرخى الفلسفة يعدون ديكارت مؤسس الفلسفة الحديثة ، ويعلم من كتب ديكارت نفسه — كما ذكر فى محاضرته القيمة أنه مؤمن بالله وبخلود الروح ، أما جهانكس الذى أثنى عليه الأستاذ وقدمه على ديكارت ، فإنى لست أعرف له من فضل سوى أنه هذب أقوال ديكارت فى الأثنينية وعدّلها إلى مذهب Occasionalists أو « الإتفاقيين » .

أما أن يكون الدخيل أصيلا والأصيل دخيلا فهذا أمر لا يستقيم أبداً ولا يمكن أن ترتاح إليه نفس .

دكتور سمير الناصرى



يا حيـــــاتى

صورة فى أربعة مناظر

للأديب فؤاد السيد خليل

المنظر الأول :

جلس الضابط متكئاً على أريكة فى منزله ، وقد وضع رجلا على رجل متصنعاً هيئة الجد والوقار التى يظهر بها فى نقطة البوليس التى يشرف عليها ، وجلست زوجته بجانبه مطأطئة رأسها تدعو الله فى سرها أن تكون العواقب سليمة . ووقف ابنه أمامه عارى الرأس واضعاً يديه خلف ظهره وقد التمعت عيناه وبدت على وجهه أمارات هى مزيج من الخوف والتحدى . وقال الوالد بعد فترة من الصمت الذى أراد به أن يلقى الرعب فى قلب ابنه كما تعود أن يلقيه فى قلوب المجرمين :

— لم عدت من القاهرة ؟

— أظنك علمت أن المدرسة أضربت وأغلقت لمدة شهر .

— أظنك ؟ !

— ألم تعلم يا بابا ؟

— أهكذا يخاطب الولد أباه ؟

— ماذا أقول إذن ؟

— أتجيبنى على سؤال بسؤال ! لقد ساءت أخلاقك كثيراً فى القاهرة !

— يظهر أنك متعب اليوم !

— أتسخر منى يا كلب !

وانتفض الوالد وقد احتقن وجهه وبرزت عيناه ورفع يده ليهوى بها على وجه ابنه ؛ غير أن الولد قال له : لا تضرب . وأخذ الرجل وارتمى على مقعده قائلا فى حشرجة تشبه حشرجة المحتضرين :

— ألست أباك يا على ؟

— وأنا ألست ابنك يا بابا ؟

وكانت الزوجة قد أخذت بهذا التطور السريع فى سير (المعركة) فلم تستطع أن تتكلم أو تتحرك أو حتى أن تفكر ، ولكنها استردت بعض جأشها فقالت لابنها : اخرج يا على . فخرج يمشى فى خطوة عسكرية كأنه طالب فى الكلية الحربية أو فى كلية البوليس لا فى كلية الزراعة ولكن لا غرو فالولد سر أبيه .

نظرت الزوجة خلسة إلى زوجها فوجدت الدموع تترقرق فى عينيه فوضعت وجهها بين يديها وأجهشت بالبكاء ، فتمالك الرجل نفسه بسرعة وقال لها : لا تبكى ولا تحزنى فلا بد من طرده من البيت . غير أن الزوجة رفعت رأسها بسرعة وقالت له :

— ماذا تقول ؟

— أقول إن هذا الولد يحزننا ويتحدانا ، وسيفسد أخلاق إخوته ، وقد حصل على التوجيهية وأصبح قادراً على الاستقلال بنفسه فليذهب إلى جهنم إذن .

— ألم يكمل لك أبوك دراستك ؟

— كان أبي يضربني (بالمركوب) فلا أرفع عيني فيه .

— ذلك زمن وهذا زمن .

— فهمت الآن . أنت التي دللته وأفسدت أخلاقه . أخرجي معه إذن .

— أنا أخرج معه ! أتطردني !

— يجب أن يكون بيتي مثال النظام والطاعة وحسن الأخلاق

— وماذا صنع ابنك حتى استحق منك كل هذا ؟ !

— ألا تعلمين أنه ينفق ثلث مرتبنا وحده في القاهرة على ملذاته ، ولولا الفدانان لمتنا جوعا .

— أتستطيع أنت أن تعيش الآن في القاهرة بما يعيش به ؟

— كنت أعيش بربع هذا المبلغ . إن ابنك يدخن ويحب أيضاً يا عزيزتي !

— يحب ! يحب من ؟

— يحب طالبة معه في الكلية .

— لا تصدق هذا الكلام . إنه لا يزال في الثامنة عشرة .

— ولكنها هي تزيد على العشرين واسمها سعدية عبدالعظيم .

— أهذا صحيح ؟

— نعم . أنا واثق . وهو يذهب إلى بيتها كل يوم بحجة المذاكرة .

— قد يكون هذا السبب صحيحا .

— أتصدقين هذا الكلام الفارغ !

— ألا يذهب إليها بعلم أهلها !

— لا أدري !

— أنك تسيء الظن دائماً .

— وفضلا عن ذلك فهو شيوعي !

— من قال لك هذا ؟

— هو نفسه عند ما قدم في أجازة نصف السنة ، كان يلومني على أنني أؤجر الفدان بأربعين جنيها ويطلب مني أن أؤجره بثلاثين ليستطيع الذي يزرعه أن يأكل مثلنا .

— ليتنا نستطيع ذلك !

— ونموت جوعا !

— وهل هذا دليل على أنه شيوعي ؟

— كل آرائه وتصرفاته وإخلاقه تدل على أنه شيوعي . وأقسم بالله إن لم يرجع عن غيه لأكونن أول المبلغين عنه ...

المنظر الثاني :

قال حسين بك تحري للحاج عبد العظيم مبروك :

— لا أستطيع تخفيض الإيجار يا حاج عبد العظيم ، إن نفقاتنا كثيرة وستزيد علينا الضرائب .

— كفى الله الشر .

— حضرات موظفي الحكومة لا يكتفون بمرتباتهم ولا يشبعون .

— قد يكونون معذورين يا سعادة البك .

— وماذا تصنع الحكومة ؟ تأخذ من جيوب الناس وتعطيهم ؟

— بل تعطيهم من المالية .

— والماليه ياحاج عبد العظيم من جيوبنا .

— الذي أفهمه أن المخدوم مكلف بالانفاق على الخادم .

— وهل يجب أن يأكل خادمك اللحم والفاكهة ويلبس الحرير .

— إن خادمنا تأكل مما نأكل وتلبس مما نلبس ، ولذلك فهي أمينة جداً ، تحافظ لنا على اللقمة وعلى اللبم .

— ارسلها لي يا حاج عبد العظيم . إن خادمي اللص اللعين سرق من محفظتي خمسين جنيها .

— حاضر .

— حاضر صحيح ، أو فك مجالس ؟

— ياسلام ياسعادة البيك ! والله لو طلبت سعدية بنتي جارية لأرسلتها اليك .

— اشكرك ! وهل هي كبيرة ؟

— انها في الجامعة ياسعادة البك .

— الخادم في الجامعة ؟ !

— بل سعدية بنتي ياسعادة البك .

— أهي جميلة ياحاج عبد العظيم ؟

— انها في نظري جميلة جداً ياسعادة البك . هذه بعض صور لها عملتها لتلصق واحدة منها على البطاقة .

— بطاقة التموين ؟

— بل بطاقة الدخول في الكلية بعد الأضراب .

— أكانت مضربة ؟

— كانت الكليه كلها مضربة .

— حتى البنات يضربن !

— انهن يتعلمن من الذكور ياسعادة البك .

— لعنة الله على الذكور وعلى الأناث ! (ماعدا سعديه طبعاً ياحاج عبد العظيم .

اشكرك ياسعادة البك .

— وإكراما لهذه الصورة سأعفيك الآن من تحديد ميعاد لدفع التأخر .

— اشكرك ياسعادة البيك !

— على شرط أن ترسل إلى الخادم الآن.

— على العين والرأس .

المنظر الثالث :

كانت الآنسة سعدية عبد العظيم مضطجعة على سريرها تقرأ فى كتاب (الكيمياء الصناعية) وكانت أمها تقف بجوارها تكاد تطفر الدموع من عينيها وتقول لها :

— ردى علىّ يا سعدية . اسمعى كلامى !أنا أمك .

— كلة واحدة الن أتزوجه .

— أهذا كلام عاقلة ؟ حسين بك الغنى المظيم رافضه فتاة فقيرة !

— عجوز وقبيح الشكل والأخلاق !

— يا ندامة يا بنتى ! الرجل عيبه جيبه . ماله حسين بك سيد الرجال ! !

— لا أريده .

كونى عاقلة يا سعدية . حسين بك هو الذى يؤجر والدك أطيانه ونحن مدينون له بألفى جنيه وقد وعد بالتنازل عنها وتخفيض الإيجار أيضاً ، وسيعطيك (شبكة) جميلة ثمينة ولا يطلب منا أى جهاز . وهذا كنز يا ابنتى نزل علينا من السماء .

— وكانت سعدية قد عادت إلى القراءة فى كتابها وكأنها لم تسمع شيئاً من هذه المحاضرة الطويلة المغرية . فابتسمت أمها وقالت : خلاص ! سأقول لوالدك إنها موافقة .

— من قال ذلك ؟ يستحيل ! يستحيل ! تزوجوه أنتم ! أما أنا فلا .

وهنا لم تتمالك الأم نفسها فأخذت تجهش بالبكاء وتلطم خديها وتقول . يا خسارة التربية ! ستخربين بيتنا يا فاجرة . لا كنت ولا كانت أيامك . وكأنما تأثرت ابنتها فاعتدلت وقالت لأمها بصوت كأنه صادر من القبر . سأعمل ما فيه راحتكم .

وأسرعت الأم تزف إلى زوجها هذه البشرى .

أما سعدية فكانت تناجى نفسها قائلة : يريدون أن يبيعونى له كأننى سلعة أو جارية ! وما ذنبى أنا إذا كان سى حسين بك يظلم أبى فى الإيجار وهو يريد تخفيض الإيجار ، فيطلب من الحكومة سن قانون لتخفيضه . أما أنا فسأتركهم لم منزلهم وأعول نفسى وأتمم تعليمى .

وفى اليوم التالى لم تعد سعدية إلى منزل والديها .

المنظر الرابع :

بعد هذه الحوادث بشهر واحد وفى ضحى أحد الأيام كانت الشمس المشرقة الجميلة تشرق فى أنحاء الديار المصرية على المناظر الآتية :

١ — الطالب على عبد الحميد يجلس مكتئباً فى غرفته وقد أمسك بيده ورقة الفصل من الكلية لعدم تسديد المصروفات .

٢ — الضابط عبد الحميد حمدى حزيناً فى منزله وبجواره زوجته يقرآن خطاباً بخصم خمسة عشر يوماً من مرتبه لاشتراكه فى إضراب ضباط البوليس .

٣ — الفلاح محروس جاب الله يقف واجماً أمام جاموسته التى تباع بأبخس الأثمان لتسديد ما عليه من إيجار الفدانين للضابط عبد الحميد حمدى .

٤ — زوجة محروس جاب الله تجلس فى غرفة مظلمة حاملة بين يديها طفلها الذى يئن ويتلوى وهى تظن أن عليه عفريتاً وما به إلا الحمى الشوكية اللعينة .

٥ — الآنسة سعدية عبد العظيم مبروك تجلس أمام طفل صغير لصديقة لها تعلمه وتنتهز فرصة اشتغاله بالكتابة فتخرج من حقيبتها صورة للطالب عبد الحميد وتنظر إليها بحب وإشفاق .

٦ — حرم الحاج عبد العظيم فى بيت متواضع مع باقى أطفالها تبكى وفى يدها ورقة طلاقها .

٧ — الحاج عبد العظيم يتوجه إلى أحد المحامين الشرعيين ومعه إعلان من المحكمة الشرعية .

٨ — حسين بك فخرى فى قصره الفاخر وقد أخرج من محفظته صورة جميلة للآنسة سعدية .

وكان كل من هؤلاء يتأوه قائلا : « يا حياتى » .

فؤاد السيد خليل